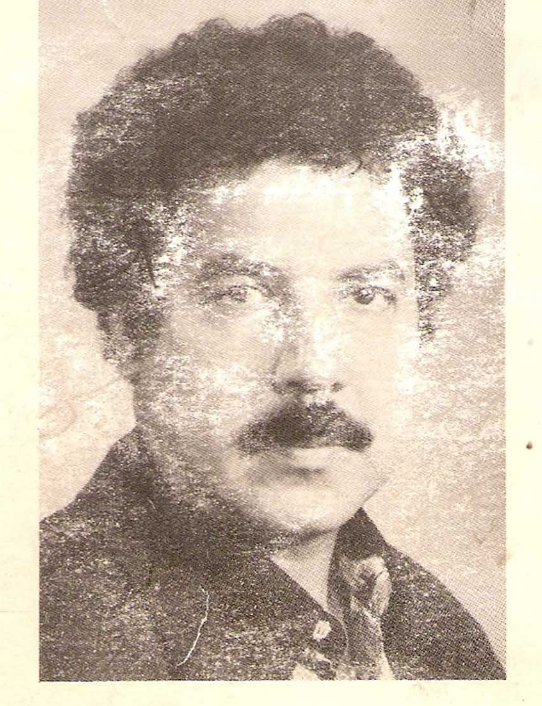


سيف الرحبي

معجم الجحيم

مختارات شعرية

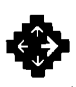


سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٢٧)

معجم الجحيم

سيف الرحبي

الطبعة الأولى ١٩٩٦



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي

باب اللوق، القاهرة

رقم بريدي ١١١١١

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س.ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج: ذات حسين

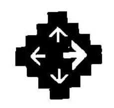
رقم الإيداع: ١٩٩٦/٨٤٥٣

الترقيم الدولي: ISBN 977-283-066-97

مُعجم الجحيم

سيف الرحبي

مختارات شعرية



ما أقسى شعورَ الإنسـان
بقدمِ وجودِة في مكان ما..
(آرتو)

«لو بقينـا نُراجع الكتبَ التي كتبنا
لَماَ نشرناها أبدا»
حكيم صيني

مختارات من

«نورسة الجنون»

دمشق ١٩٨٠

جثث
تتسلق القطاراتِ العائدةَ من حرب الأيام
الستة.
وتوزّع منشوراتها على الغيم الصامت
في فوّهات البنادق.

هذا الرمادُ لا يستوقفني
هذه الحقول تزّوجت غبار أيامي
وأدخلتني رحمَ الخراب
سيد أنا كالسرطان أسفح دمعي على
القطارات
ذات الأعضاء الوثنيّة

أدخلني دانتي إلى حضرته وحجز لي
مقعداً في الجحيم
لبسْتُ زعيقَ طفولتي
هربَ مني الرجالِ الرسميون
وأشعلتْ قطاراتُ الليل أنهارها المقدّسة
في أحشائي.

ليست هذه مجزرةَ الثورات بل
صفيرٌ يتوسد السديمَ

ويكتب موتَه بحبر الآفاق على
موانئ جسدي.

صفير الرعب
كأنما الموانى أحلام للموتى
والجزر النائمة في قيعان
الأبدية.

أشعلتُ الأغاني بشموس لا
طَعْمَ لها
أشعلتُ المسافات بموت البلابل.

شيء يتحرك في قرص الرأس
عواء قطارات بعيدة
جزر تهذي بعيداً عن رقابة البشر
بلدان وطئتها نجمةُ المجوسِ
الباهرة
حلم القطارات هيَ
حملتُ سنيَّ حياتي قرباناً لآلهتها الدموية
حملت حكمةَ الأجيال المسكونة
بغموض النار
لا شُرطة على أبوابها

بل.....؟!
يا أيتها البلدان النائية في روحي
أيتها الجزرُ المستيقظةُ في
حلم القطارات
اقتربي قليلاً
أو ابتعدي كثيراً
أنتِ خطيئتنا الأزلية.

مزجنا دماءَ القطارات بشهوة الصباح
كانت عُمان وردةَ الانطفاء
باركَتنا
أطلقتْ علينا وحشةَ القطارات
نخل يستيقظ على صفير الآفاق
يأخذ زُوَادةَ الحلم ويمضي.

رهافةُ الماء سكنتْ أحشاءَ المسافات
شراسة الصخر
زرقة تسبح في حُمَّى أعضائنا المتّجهة
صوب أنفاقنا المظلمة
باركتنا أساطيُر الجنون
خمور الحانات المعتّقة بنداء
القطارات

لا ننام إلاَّ لكي نستيقظ
في أحلام أخرى
وجزر أخرى:
كان المجوس يشعلون الموسيقى
تحت نجمة المساء
ويهتفون لسحر الرؤى المعربد في
خيام اللذة
النساء المجوسيات
الرجال المجوسيون
حطب لاشتعال النوايا العذبة
في فجر البدايات
صنوج الغواية في فضاء الامتثال
باركيهم يا عواطف إشراقي
وأنتِ أيتها القطعان العائدة من المرعى
اخلعي على أرواحهم حنانَ
الجهات..

مرة أخرى صعقتنا رياحُ الشمال
فامتثلنا أوامرَ الغيم.

بعيدةٌ هي المرافئ

بعيدٌ سراب المحطات
الجبال تتقاطر مغشّياً عليها
الغابات تدخل ظلمة الأنهارِ
ذاتِ الرؤوسِ المقطوعة.

صليلُ قطارات عائدةٍ من مراعي الحروب
جثث وأشباح تتعانق
في مرايا الفجر
والمسافات تبصق أشلاءها
تزفر محيطات الكآبة أطفالاً
بلون الفحم
دخانَ أحلامٍ تتنفسه القطارات.

بعيدة هي الموانئ
بعيد سراب المحطات
انفجري يا آبار النداء الغامض
في أعماقي
امنحيني حريةَ الموت
في رَحِمِ المسافات

دماؤك بللَتْ شفاهي

بالأمطارِ الوثنية
فطفقتُ باحثاً عن إلهي الآخر
في أرخبيلات الجنون
لم ترضعني أُمَ
لم تأوِني بلاد
استيقظتُ فرأيت القطارات
تنهب عمري
بمخمل المسافات
فتبعتُك أيتها الأم الشريرة
يا لعنةَ الولادات الصعبة

انفجري أيتها الجزر النائمة
في أحشائي
لطخي وجه الخلائق
بزعيق الأقاصي
فقد شاختْ أحلامي
دخلتْ طورَ الهباء

جمعتُ زهور الحريق في معطف القطارات
أفرطتُ في الحنين إليك
يا ترسانةَ الصراخ

البشرية..

❖❖❖

غزالةُ الوقت تركض نحو
النهايات
القطاراتُ تعجن همسَ المقابر
تصهل السنوات في نهر الوحدة
المتدفق كشلال ضحايا
فكأنما الفضاء حديقةٌ للكلام
تتوارى جهاتٌ وأحباء
تظهر تماسيحُ الأعماق تنهش
أغصانَ الذكرى:
- نزهات الحروب الخاطفة
- بكاء الأمهات
- الحب النائم على سرير التلاشي
- سحب سوداء في شاشة الرأس.

تتوارى الجهات
والفضاء حديقة للكلام

حديقة للنحيب..
يا للصباح يأتي من الشرق
حاملاً هداياه.

مليون مذبحة تتفيأ في ظلالها
الكناري
الشوارعِ، المقاهي
صحراء الغرائز، محجّبة بصفارات الإنذار
حذلقات الأصدقاء
شواطئ الاسكندرية وهي تبتلع
حبوب منع الحمل
يأس الصباحات العذبة ..

إيه روما
تدخلين الجسد كأنك الإكليل المُسجّي
فوق نعش البشرية
تذوبين في شحوب الوجوه
أقماراً تتناثر من زرَد السحر

روما

عظامك ناتئة كعربات الإسعاف
لكنّك الإله المجنون في مخيّلة السماء
أصرخُ في شرايين أزقتك
العطنة:
أنجلو
فلليني

أيتها الأشياء الراحلة في معراجِ العدم
مازلت يقينَ الدهشة
فوضى الجمالِ في
انسيابها الحزين

❖❖❖

من نافذة القطار
رأيتُ أميرةَ الآفاق تمسك
بصولجان العواصف
تغطيها سحب الربيع بأكفان بيضاء
والبحر يتمدد على أطراف الغابة
مشبعا بنعاس الأمداء

رأيت صباحاتٍ يفترسها عصفور
رأيت المطرَ والريحَ يتجامعان وينجبان
حمرةَ الغروب

رأيت الخلجان النائمة على أكتافِ
السفن
والنوارسَ الذبيحةَ تحلق فوق زَبَدِ
الموج
رأيتُ النسوةَ الوثنيات
يقتحمن تلالَ التاريخ بكهرباءِ
الحب
ونجمةَ المجوس تتألق كشمسِ
الغابات الفضية
جارحةً
تنصب أوتادَ العذوبة في
الجزر البعيدة عن صفير القطارات
وجلبات السفن الراجفة
في الميناء.

انفجري أيتها الجزرُ البعيدة

يا أحلامي
فالنهار يقرع أسفلت الشوارع
بأحذية الجند
وأنا وحيد في دغلِ الخنازير المصقولةِ
بملحِ العادات
وبخورِ المآتم اليومية.

❖

شرفة دمشقية

الليل، أسماكُه تسبحُ في دمي
أسماكُ هذا الليل الشرسة
مثل عرباتٍ عتيقة..
هكذا من غير استئذانٍ هذه المرة
نَحَتْ أساطيله / مناراته / قوةُ حضوره
في دماغ الحجر.

وحيد أنا أدخل غرفتي الأشبهَ بفوّهةِ
مسدّس
يبحث عن وليمة
ربما أكون أنا أو صديقي.

مرّت البواخر تحملُ الموانئَ والدهورَ الطويلة

تقلبتُ قليلاً في فراشي / الشاحناتُ
تُلامسُ الأعضاء بلطفٍ حريري
ربما لستُ الوحيدَ الحاملَ همَّ هذا العالم
هناك آخرون يقيمون
خيامَهم في جسدي
لكن لا مانع أن اقول إني وحيد
ومقيم في رحم الأشياء السريعةِ
الزوال.

من شرفتي الدمشقيَة
أطلُّ على جحيم أيامي الناعم مثل
ذكرى بعيدة
أسمع الأخبار العربية
وأسمح لنفسي بالتخيّل:
ها هو الفضاء مشنقة بحجم الإنسان
المرتدي سلطةَ الحلم
أين يمكن للعصافير والنسور
أن تحلقَ خارج جحيمي
أنا الرجل المنذور للغَدْر
أحدّق في مرايا نفسٍ مقعَرة

جماجمُ وعظامُ وحطامُ أجيالٍ كئيبة
يسكنون القاع
ونسوةٌ ينتحبن في ثياب الحداد
كأنما العالم يجترّ حطامَ أيامهِ الأخيرةِ
في قلبي.

❖

كونشرتو من أجل داليا

من أجلكِ
من أجلكِ
يا داليا سقَنا الصباحاتِ الطريدةَ
إلى فسفورات التداعي
المجنون
ومن أجلك قَرعَ النفيرُ أبواقَ
يأسه معلناً موتَه المجيد

أنت امرأة الحياة وما عداك
موتٌ يدلف نحاسَ عينيكِ
فيتلاشى العالم
في بؤبؤ الرعب
يا أيقونةَ البراري الوحشية
الأمداءُ صرخةُ الخضوع لخطوتكِ المتماديةِ

في الفَتْك
على القممِ الأبنوسيّة.

أي عذوبةٍ هذه
أي صباحٍ ينهضُ بتكاسلٍ
من حلمتيك
أي وطنٍ ينقش استغاثاتهِ
فوق الأرصفة
وعلى أسفلتَ الوجوه المهشّمة..

عبرَتنا رائحةُ الطفولاتِ الهاذيةِ
تحت سماء الأسطورة
والقصائدُ النَازفةُ أضويةً مقتولة:
حيث يركض طفل في حقل رؤاه
وتمطر السماءُ جثثاً نحسبها
عصافيرَ

النوافذُ مغلقة بذكريات الحروب
والبدو يهتفون برؤوس منخفضة
لجباة الضرائب.

ولكي لا نتلاشى سريعاً
نهتف
داليا داليا
نلجأ إليك
لبهائك المَقيم في عتمةِ الأزَقة
وأرواحِ الشهداء
لنرجسِ الغابات المغمورِ
بخواتمِ اللذّة
وقمحِ الرغبات

نلجأ إليك
الحشراتُ تَسبح في جليد دمائنا
كالأساطيل الملفَعة ببهجة النصر
وعلى مدار جثَة الزمنِ
تسكننا شعوبٌ تشربُ
فائضَ العالم من الذُّل
وتضمحلُّ
في هبوب المداخنِ
ومساءات النزيف.

عربة يجرها الوهم تُسَمّى
بلادا.
مسالخُ ينام على أرائكِها النبض
البشريّ
صباحٌ يأتي مخضّباً بنُواح المقابر
سماواتٌ وحدائقُ
تستجدي النومَ في المصّحات العقلية..
ذلك هو فحوى الخطاب الأخير
لرئيس الشرطة.

تلك هي الينابيع التي تسقي جذورنا
بعنفوان الأرق وقيء المحيطات
بأي شيء نستطيع التفكيرَ هذه الليلةَ
يا داليا
قاراتُ الوجع تستوطنُ الرأسَ
مثلَ الفأسِ تماماً
حيث تتسع حظيرةُ القضاة
وبائعات الفُروج في
المزادات العلنية
حيث العَالم كرة مطّاطٍ بين

أقدام البرابرة
وحيداً أقف وسط هذا المزاد
العجيب.

جلَبةُ الرأسِ سطوةُ الفضاء على الذاكرة
صنوج يقرعُها الراعي في خضمِّ
المفازات البعيدة
هلوساتٌ ترحل في عروق السماء.
الحشيشُ يفتح نافذةَ
النُباح
على
أديم
الزهرة
وأنا أرحل مع داليا وسط ضجيج الأزمنة
وموانئِ التفتيش العربية.

كونشرتو

مزروعون في الزهور القاتلة

لحدائق المحنة
في الساحات وشاحنات الليل
تأتي مكتَظة بنزيفِ الفصول
وأفواجِ الجلاّدين.

بساتين المحاق المزهر تنام عاريةً
في قلوبنا وتقرأ الفاتحة
قبل الذبح ..
خمسون مقبرةً تنشر غسيلَها على
الرؤوس وفوق أسطح
المنازل المترفة.

مؤكداً أننا ماضون نحو النهاياتِ المحتومةِ
لهذا الرعبِ الجليدّي
الذي تقوده رياضُ الأطفالِ
وفِرَقُ الإنشاد الوطني
لهذه الموسيقى تلعق الدمَ
مثل ضِباع المسالخ

مجزرةٌ تتزوج أخرى

وقتلةٌ يمســحون الشـوارع
من آثار الدم العالق في
أهدابِ القمر

أيها الرجل الجالس على جفنِ
روما
تقرأ بازولينيِ وتفكر..
ها هو نيرونُ قادمٌ
بعصافيره وأقفاصه الذهبية.



قلم رصاص ومشنقة

غيمةٌ على طاولة الكتابة
وقلمُ رصاصٍ ومَشنقَة
ومن حديقة المنزل يطلع
بغاثُ طيرٍ وجلادون بمعاطف
وياقات مذهّبة
وأنا أنتظر الموجةَ القادمةَ
من ساحل رأسي
حيث تنام العداوات متآخيةً.

أنتظرُ
أن أكتبَ شيئاً عن طفولتي
عن الطائر المتّهم بجرائم الكون والتاريخ
عن الأطفالِ الذين ينشرون الرعبَ بين العصافير
عن الأمهاتِ اللواتي يقتلنَ أولادهن

خشيةَ انكشاف السر
عن وحوش تنجبها أرحامُ الورود
عن الخطيئة المشرقة مثل قمرٍ
على جديلة الليل.

مَرْت نسمةٌ بين شقوق الباب
وحشد نجوم وبلابل
فأرقدتُهم فراشي
وأنا على الكرسيِّ
وأمامي طاولةٌ وقلمُ رصاصٍ
ومشنقة!

❖

مساء الكوابيس

صراخٌ نافرٌ مثل عنقِ الحصان
صراخ أم سُعال أم استغاثة غريقٍ
هذا القادم
من صدَفَة الأعماق
من خرائب الذكرى
أطفالٌ بلون الرغبة الميتة
وجندٌ مهزومون
وغبارٌ
امرأةٌ تتجوّل فوق حدقةِ الريحِ
المنكسرة
وأرحامُ نساءٍ على عربة الحوذيَ
النائم:
إنه المساءُ
يا سيدتي هل ترغبين

في قبلةٍ أو رصاصة؟

هكذا تودّع الشمس
إخوانَها الفقراء
لا صوتَ غير البكاء
ولا حشرجةَ فوق فوّهة الجرح
والقمر مطفأ على هضَبات
العمر:
إنه المساء
هل تأكلين تفاحةَ الحلم فوق
جثة الأفقِ
المتدحرجِ
بين أقدام المُلاكم الزنجيّ؟

يصطاد فراشةً في شكلِ
امرأة
هذا الجلادُ المتدثّر في
عباءة المساء
كنتُ أَكتب اسمك أيتها المرأة
على مآتم روحي
وأصطفيكِ من أسِرةِ المياه

هاتكاً عداواتك العذبةَ
بين أفخاذ القارَات.

أهكذا يُفرِغُ الجحيم من طفولته
النيئة
ويستبيح الطيرُ المسائيُّ ساحاتِ
الموسيقى
مثل جلاد
أهكذا يعربد المساءُ
فوق الأرصفة؟

❖❖❖

الضياعُ يمشي لابسا قبّعة
وعلى خصْره زنّار من
الورد
والحانةٌ مصنوعةٌ من شظايا الذاكرة
انتظرني لكي نشربَ كأسنا الأخيرة
ونحرق الكون
بالأغاني والهذيان
فالصبح ما زال بعيدا!

والفجر يتساقط ثلجاً وجثثاً
فوق قبّعات العشاق
امنحني نفحةً من حنانكَ أيها
الطيرُ الذي ينهش أحشائي
بمخلبه الذهبيّ
فأنا توأمك الحنون
ومن رحم الغيم خرجنا سوياً
مثل جنازتين في الصباح

❖❖❖

أيها الرصيفُ الرمادي
يا طفولةً مغتَصَبةً
السماءُ تمشي على عكّازةٍ هرمة
والأرض تعانق الخواء
وبناتُ آوى ينجبن أطفالاً في
رأسي.

إنه المساء
هل ترغبين في قُبْلةٍ أو رصاصة؟

مختارات من

«الجبل الأخضر»

دمشق ١٩٨١

الجبل الأخضر[1]

هذا هو الجبلُ الأخضر إذن
لم يكن سيداً لسفوح الثلجِ
بل تاجاً للفضاءاتِ الهاربةِ
ولؤلؤةً للحضور.

يمشي فوق جلدهِ الغزالُ
مثل جيلٍ هاربٍ من مصيرهِ
أتراها كهرباء الرعبَ تلك التي
تدفع السماءَ إلى تأمُّل ذاتها
في مرايا الجبال، حيث ينكسر
الكونُ في ارتجافة عصفورٍ،

(١) سلسلة جبال ضخمة بعُمان. والقصيدة مقتطع من قصيدة أطول كتبت ١٩٧٨ بدمشق.

وتجفّفُ الخلائق أمعاءها على ذرى
الاشتعالِ بأسئلة العزلة الكبرى
والتباساتِ النهارِ.

كاهنٌ هذا الذي يَسُودُ الأمداءَ
مثل برجٍ للضياع والفتنةِ التي
تتوسد مغاراته
الموحشةِ..

ربما بدويٌّ قطفَ زهرةَ الجنس
ونشرِ إشاعاتٍ عن سقوطَ
الشُهُب في حضن الوعلَ الوحيد
بساح المَلائك والزبرجد المَتناثرِ
من قلائد عشتروت:
إنه الشرق إذن
شرفةُ البياض
إقليمُ النواح الأزليّ
قبّعةُ المساء
وساحةُ القتلِ المضاءةِ
بدم الفهود ..

الجبل الأخضر تنام في جراحه

آلافُ الطيور الشريدة
وآلافُ السيوف المسرَفة في البياضِ
مثلَ عذارى الثلج
سيدُ الطير ذاك المسكون بالحكايات
العذْبة مثل خرافاتِ الأجداد
في مسَاءٍ مريض.

ورويتْ عنه الأيائلُ الذبيحةُ
بقسوة الرعاةِ وحنانهم
أنه تنهد ذاتَ ليلةٍ فخرجت منه
بحارٌ وقيلَ شعوبٌ من فقراء النجوم
ناء بحملهم فقذفهم نحو سماء بعيدةٍ
وهناك كانت فرقُ هولاكو بانتظارِ
القادمين بالحِراب المسمومة..

إنه الجبلُ الأخضر
مزرعةٌ للنوارس المتعَبة
مجدٌ لصباحات النشيد
فيه بنَتْ الغيومُ مأواها من فاكهةِ الخرابِ الأعلى
وسيّجتها بأحلام النسور
فيه لبستْ العقبانُ
أجنحةَ الفصولِ

وحطّتْ على شجر الرؤيا

ها هو الآن يجلس في بؤرة السديمِ
مثلَ كائن سريالي
يهمس لمخلوقاته بالانتشار المقدّس
على سفوح العمر ويناديناا إليه.

ها هو الآن يعربد في أعضائي
مثل مجزرة وسط خيامِ
الفجر...

للزمان عذاراه
وللغيم فحولةُ الحصان.
هكذا علمتني رياحُ الجسدِ الأخضرِ
حين تسلقتْ أعضائي
مثلَ سحابةٍ
وانسكبتْ في قوارير الحنين.

أيها التويجُ الذي يلامس
شفاه السماء
كيف أعطيتَ للمستحيل
أسماءَ الخلود

وللنساء شهوةَ
الينابيع
ودخلْتَ مدارات جنوني
عاشقاً ساديّاً
تذبح التاريخَ المتخثّر
قربانا لذاكرة اللوز
وحكمة الأقحوان
وطويتَ المسافات مثل
صقور الحلم
جاعلاً من موتكَ عشباً لحياتكَ
ومن حياتك
طريقا للمجد.

ألهذا تتشظّى الآن مثلَ حريقٍ فوق
برج المتاهات
معلناً موتَ الصباحِ على قبابك
وانتحارَ الياسمين
ولهذا تدخل عواصمَ الخراب
وفي يدك جرس
أو مايشبه الأنينَ الغامضَ
لتاريخ يموت...؟

وفتحتُ نافذتي فدخلَ الفجرُ وحيداً
عابقاً بالرؤيا آه الرؤيا حيث النساء
اليعربيّات ينسجْن غلالاتِ الفحولة
بدماء الزهر،.

وسمعتُ جلجلةَ السيوف
قلتُ: لأقتربْ قليلاً من طقوس الريح
قلت لأمزجْ خاصرةَ الريح بالشهداء
فرأيتُ اليعاربة يسوقون التاريخَ
المتخثّر مثل نعجةٍ
ويدحرجون السماء
مثل حصاةْ.

الفوارسُ الصِّيدُ
يرفعون الجداول أعلاماً.

وللأنوثة فيضُ الظهيرة
اليعاربة / بدعةٌ مشروعةٌ
يمامةُ جرحٍ ومطر
بحارٌ لها لون ابن ماجدَ في احتقان
الريح
أساور للشموس

وهسهسة الشروق

أخذوا يعدُّون القبابَ الخضرَ
ويسرجون البحرَ حلمَ الاقتحام
بدويةٍ فوق القباب تلوِّح بالوداع
والفوارس في الذرى مثل الفجيعة
في الظلام
ساروا وسار الأخضر الوحشيّ
فوق رؤوسهم مثل الغمام..

يا فتنة التاريخ لم يبقَ غير
الانتظار
ودمٍ يجف على مسافات الضياع
وأنا أحملق في ربيع الأرصفة
دمٌ وخمرٌ في الفضاء ومشنقة
وشارع يمتد حتى الله...!

هذه هي آسيا إذن
شرفة البياض
إقليم النُّواح الأزلي
قبعة المساء
وساحة القتل المضاءة

بدم الفهود
فيها تبني العصافيرُ أعشاشها فوق أعمدة
المفاصل
وفيها مستودعات الاختراعِ لآليّاتِ
الدماغِ والجنون
زجاجة فارغة في حنجرة الإدمان
مقبرة تضاجع أخرى
ونشيدٌ مخنوق
هذه هي أحشائي المبعثرةُ في جنونِ
الريح
فدائيون وملائكة عابسون
وأقمار في مستشفيات الجذام
هذه هي أحشائي
حكمة ترشها الثعالب
فوق جدائل الصبية
ومشاريعُ جاهزةٌ لشفط الدم من أوردةِ
القصائد.

❖

الخراب المبارك

مباركٌ هذا الخراب
يلبسِ درعَ الأيام ويمضي
مباركٌ زنّار البلابل على
خصرِ حبيبتي
مباركةٌ جرائم العصافير والنيازك
مباركةٌ هذه الأرض التي تسع جميعَ
الجلادين
ولا تسع زهرةً على
كفَّ فراشة

مباركون نحن الصبيان الأشقياء
فوق بلدان الغثيان.

يا حبيبتي
هل رأيتِ خرابَ الزبرجد

يلمع من عيوني مثلَ ماسّة الليل؟
هل رأيت المسيحَ المقتولَ فَوق سريري
دمه مازالَ ينزف من أوردةِ
الشمس؟

وطيوراً أسطورية المخالب تحفّ
بموكب اللاعب الجديد
حشداً من أعقابِ السجائرِ والسعالِ
يصفُق بحماس
وأبا ذرّ يتدحرج عبر أقبيةِ الليلِ
وألسنة فرسان الحانات
وحيداً
منبوذاً
كصحراء التيه.

هل مازلتَ تحلم بالبهجة يا صديقي
أما زالتْ تسقطُ من كفك الغيومُ
وحلوى الأطفال؟
وتنام على ذراعيك العقبانُ
وأحصنةُ الفحولة
مذ رأيتك في العام الماضي
معتكفا في غرفتك العارية

يحلق فوق جبينك طيرُ
الرعب
وغاباتُ أجراسٍ رمادية
قلتَ: الزمان..
وبكيت.

❖❖❖

منسلخاً من دهشتي الأولى
قاذفاً بطفولتي للكلاب
أمشي في الشارع الممتدّ من نيرونَ
حتى هتلر
مصفقاً لمواكب العماء والبعوض
حالماً بالذبح وقضم التفاح
فوق جثث الضحايا
الضحايا الجميلين مثل ليل الجريمة
تحف بمملكتي الرائعة
طيورٌ زرقاءُ وحيواناتٌ
أسطورية
وأنا أقهقه
ممتلئاً بالنبيذ البشري واستغاثاتِ

القتلى،
وحينِ ينفجر صوتي الآخر
صوتُ أبي ذر
أكون قد أنجزتُ وليمتي
وهربتُ إلى رحم أمي
ومن هناك أقود المذبحة
كالثور الهائج
ناسجاً لحياتي علياء المجد
وأبَّهة الصراصير...

لماذا أراك حزيناً يا أبا ذر
يا صديقَ التشرد والموت
اليومي.

هل آملك هذا المشهد
حيث الخليقة تنشر أسرارَها
النائمةَ
كأزياء العاهرات
حيث ينفجر قلبُ الريح في ذاكرةِ
الأجيال
ونصلي صلاةَ الدماء المتدّفقة من
أنامل البحر

حيث يغفو سرطانُ الأعماق
تحوط به نساؤه المتدثراتُ بحنينِ
الصعود إلى اليابسة.

ونسوق بقايا طراندنا في تضاريسِ
الجبل الوحشيّ
لأحلام القتل.

آه أراكَ تهذي كالمحموم
إذن لِنَرْتَحْ قليلاً
من زحمة الكوابيس
ونؤدّ ما تبقى من صلواتنا الدمويّة.

❖

مختارات من

«أجراس القطيعة»

باريس ١٩٨٤

مغارة الهذيان

الصباحُ شهيةٌ مفتوحة لابتلاع العصافير
الغيمةُ تجرّ وراءها قطيعَ ذئابٍ حيث
البراكينُ تكتبُ قصيدتها الأخيرة
على جسدِ الأرض.

كان صباحا معتماً بالضرورةْ
الفوانيسُ انطفأتْ في جمجمة رجل متعَب
ومعصيةٌ شاحبةٌ تتلألأ فوقَ رأس المرأةِ التي أحببتُها
ذاتَ دهر.

❖❖❖

كانت القصائدُ تأتي كلما نزفتْ يمامة
كلما نعقَ عندليب

منارةٌ يرفعها الصراخُ مثل برجٍ من الذكريات
وفي مزرعة الشهوات تلك
نَسِيَ الجنديَ حذاءه وقبّعته
في
رمالِ الجسد.

❖❖❖

ليست الشاهدةُ علامةَ قبر
إنها الرغبةُ وقد سَحَجتْ شعرها
بانتظار قفزة في الهاوية

❖❖❖

القسوةُ تلميذةُ الكواكب
القسوةُ إكليلُ السؤال المختبئ في حانةْ
ألَمْلِمُ أيامي كَمَنْ ينتظرُ مولوداً
يبقر
بطن
الرتابة

عبدٌ لرغباتي
كل لحظة يأخذني قاربُ الغياب
فأرى القرويات يقطفن زهراتِ الحنينِ
ويلعقن لعاب اللذة المتسللّ مَن
مغارةِ الهذيان

❖❖❖

هذه هي أنت:
امرأةٌ تُحدّق في نعشٍ
بهجةٌ تختفي بقدوم الكآبة
بظرٌ يلعقه صهيلُ قطار
حزمة عظام لديناصورات تلعب الشطرنج
تلويحةُ مسافر يحلم بالنبيذ
سهرة تفقس المجون في ذاكرة أضاءها التجوال
وأنت أيضا
القتالُ الساخر في جنون المخيّلة
فَخُذي ودائعك أيتها الحياة
إنني راحل غداً إلى بلاد بعيدةْ.

❖❖❖

أزَفُّ أُسْرَة موتي إلى شواطئ أيام مهجورة
أكتشفُ خيانةَ الأصدقاء في الموجةِ القادمةِ
من خرائب الروح.

إذ ليس الأخطبوطُ إلا
منارةً لصيد الرغبات
والتعلثمُ ياقةٌ لقميصِ الغموض
فاتركوا جماجمَ الحروب تموء على مدخل بيت السلحفاة
فأنتم ضيوف المساءَ الهاربِ
في
حدقاتِ النيازك.

❖

الأرخبيلات البحرية

أتأملُ مشهَد مدينةٍ تستبيحُ نعاسَها بالحرائق...
مشهدُ مدينةٍ تحترقُ في مساءٍ من مساءات رحلاتي الألف، أستمع إلى قيثارة امرأة عمياء وسط أنقاض الفيضانات،
لحظةَ يحلق طائرٌ.. يرتطمُ بأجسادٍ خرافيةٍ مثل حشرجةِ قتيلٍ يتذكّر ليلةً فاسقةً بين أفخاذ الهملايا.

المدينةُ تحترق.
الطائرُ يرتطم بثدي الريح.
وكما لو أن رجلاً نائماً رمى قبّعة في غابة من الشموعِ، أو حجراً في بركة دمٍ، استيقظتُ لأغسلَ عن وجهي دخانَ المذابح ..

ولا بأس أن نضيفَ إلى هذا المشهد جلَبة القصف لرعودٍ بحريّةٍ بعيدةٍ تقتربُ حتى تلامسَ الأرخبيلات المفعَمةَ برَعاةٍ غامضين يرتكبون مجازرَ غامضةً في المخيّلة، بينما:
(موجة واحدة تدحرِجُ خاصرتَها منذُ طروادة).

إنه الشعر أو ...؟!
البحرُ الذي يخلع معطفه على الخلائقِ
المستكينة في كهوف النمل
البحرُ المَتوثّب كالنمرَ في أحشاء امرأة
يمشي من غير خفّ على صفيحَ الوقت
مترنحاً بثمالة الغامض
مُدحرجاً ثالوثَ الزمنِ كعينٍ مفقوءة في
غيبوبةِ كائنٍ يستعيدُ ماضيه برهةَ الاحتضار.

وأنتَ أيها الفتى الجالسُ على الشاطئ
شاطئ الجباه الثكلى
وفروجِ الأراملِ المعروقة بالرمل
عليك أن تستعيد حوارَ الموجةِ مع مثيلاتها.

طائرُ العذوبة يحلق على منحدرات، الغيب،
فيسقط قمرُ الأنبياء في أحلام الغريق:
الصحراء تمتدّ أمامَك
البحرُ يتنفس بصعوبة
الليلُ يتراجع أمام الأوبئة التي تفتك بالمدن،
وإذا كنتَ شاعراً فعليكَ أن تمشي إلى
حتفكَ بعُرْي المفردات الطالعة
من مغارة الموت

حيث القتلى يتناوبون الدور في
الانحدارِ نحو الهاوية.

أمُّك تبصُق أحصنةً من شدّة بكائها عليك
إخوتك يزنّرون الحقائبَ بأحلام الوحوش
أصدقاؤك يقرأون في دفوق الموجِ
زرقةَ عارِ الإنسان.

وإذا كنتَ شاعراً فالبهيمةُ وحدها
تمضي إلى الموت من غير اختيار
ليكن خلاصُكَ خلاصَ الحطبِ من وطأة النار
خلاصَ الراعي من فكيْ ذئب
وإذا فُوجِئتَ بصرخة الحشر فقد
سبقكَ الأصدقاءُ إلى الموجة التائهة.

كرسيّ وحيدٌ في غرفة خَرِبَةْ
مشط مكسور على طاولةَ الجنيّات
حشرةٌ تَتَسلّقُ جدارَ الفطنة كالسلحفاة.

والبحرُ وحدَه يعرف الأسرارَ النبيلةَ
في هلوساتِ الشطآن.

إذن لا بأسَ من زيارتكم هذه الليلةَ التي
تتقيأ زُعرانَها كأنامل العاشقة
لا بأس من زيارتك يا «تريستان تزارا»
وقد (دمَّرتَ جواريرَ الدماغ) من غير شَفَقَة
وبحكمة الفوضى يا «سركون بولص» قد
استعدتَ آشور لكن على شكلِ خرافةٍ تخرج
من آذانها فئرانٌ سوداء.

براءتك أيتها الحياة طَلقتْ زوجها منذ ألف عام
فها هو الصباح يبحث عن فريسة المساء
أُشيح بوجهي خجلاً من أشجارِ
طفولتي.
أستبعكَ يا خيطَ الحرائق في أعماقي
أنتَ الآن وحيد تضيء مسرحَ المذابح
في الضفّة الأخرى
تأكل الأعشابَ
قاطعاً أوردةَ العواصف في عنق الغيم
لكي تكون سيد الهدأة في
انفجاراتك النرجسية.

وجهُ الغياب الأسمَى تقاليدُكَ
لخراب الآتي

قرن الكوارث المحفور على جبهة الليل.

اتبعيني يا قطعانَ الشكيمة يا نداءات الغرقى
سأبرئكم من متاعبِ التحقيق
في جرائمِ الأجيال
لكي أقودكم إلى صالات أخرى
يبيضُ فيها التاريخُ حروباً أخرى
وسترون قبري المفروشَ بمآدب مخلوقاتٍ
زنخة
قبري المضيءَ مثل جريمةٍ في ليل
سأسوّي أمرَ مقتلي مع حرّاس الحدائق
وبائعي بطاقات عيد الميلاد ..

ثلج يتساقط فوق بحر النزوات
جديلةُ امرأةٍ.. مظلّةُ طائر

صوتك أيتها المرأة يمشي على البحر من غير حذاء
يملأ المَقاهي والسرطانات بأريج الليمون
ولكي أكون صادقاً معك
عليَّ أن أدحرجَ الكواكبَ والاسطبلات
وأسوقَ المدنَ والجنرالاتِ مثل
قطعانِ الماشية،

صلفا بإنتصاراتٍ يحققها طائرٌ في نومه.
فالحَرب نزهة أقوَمُ بها في جنائن الرغبة
أوَجه أوامري من فوق منبر الجحيمِ
المحنّط بخطيئتي
حيث يخرجُ طغاةُ التاريخ يتقدّمهم قطار الموسيقى
وبين فاصلةٍ وأخرى تُبادُ أمةٌ
تحت المعطف الأنيق لمبرّرات القوّة
ومن نافذة القطار يلوّح «المقدوني» إلى
«الفوهرر» و«ستالين» بأن الأمور
مثلَ سحابةٍ تمطر تعاويذ العشق..

شرطيّ النَّزَعات يلبسُ درعَ الطبقات
البشريةُ كأسٌ يفرغُ نفسه في مستنقع
وفي ليلة مثل هذه يزدهر الحب
بين أفخاذ الراهبات.

اتبعيني أيتها البروقُ بحنينكِ إلى
ثكنات الغرائز
سأسَوّي أمرَ مقتلي مع حُرّاس الحدائق وبائعي
بطاقات عيد الميلاد
ولن أكَون قاسياً بعد اليوم
بل سألعب دورَ المهرّج أنيقَ الصمت

وسأبذر قمحَ الأحلام لصغارِ الطير
ناسجاً
لأطفالِ الأرصفة أثواباً من أحداق العصافير
وذهولِ الأمهات.

وأنت يا بقرةَ الحربِ سأرضعكِ أسماكَ القرش
نكايةً بالعواصف
أُطعمك برسيمَ الضوء
أسحبكَ من قرنيك نحو حقل النبوءات
حيثُ كُلَّ لحظة تنفَجر فيها المجراتُ تهتفين
باسمي..

الصحراءُ تقضمُ الجهاتِ مثل أرنب يفترسها
ماموث
البحرُ يتنفس بصعوبة
الليل يتراجع أمام الأوبئة التي تفتك بالمدن.

وليس أحد لتقرعي أجراسك
يا كنائس النميمة
ربما لست أنت
لكني أسمَع أصَواتاً تفسّخ أعضاءَ الشمس
تقدحُ شررَ المأساة بحوافر أسطوريةٍ

أُلصِقَتْ على أثدائها جنازةُ ميِّت.

تعبتُ من سماعك يا ضحكات أعماقي
لكني مبتهج برنينكَ الأرجوانيَ
مثل حقل ينطح بحراً من الأمنيات
مثل ريحٍ تداعب أطفالها بمخالب نسر
أستبقيك في ممالك وهمي
شاهدةَ الانهيارِ السَعيد
القرف السعيد
إذ ليس ما تخسرينه
غير هذا الاتساع البذيء لجمرة
تُخْمِدُ نفسَها
لعندَليبٍ يخنقُهُ صوتُه
لبابٍ تقفله الأصابع
لأصابعَ يقطعها الجلاد.

أعرفك يا انبلاجات روحي
لست يائسةً بما فيه الكفاية
لكنَّ وعولكَ الناتئةَ حين غادرتْ عاداتها
رجعتْ وعلى شفتيها فرحُ الدم
فرحُ القلاع المنهارة - هناك
تنام عذراء النعاس

مصغيةً لأقاصيصِ «شهرزاد»
يهدهدها «المتنبي» بعضوِ جنونه الأحمق
والمقاصير التي بناها المجونُ
الجارحِ،
ترسلُ قهقاتها إلى البحر
وقد استعادَ هيئته النيزكية.

أعرفك،
يائسةً بما فيه الكفاية
تتعرّين أمام البحر
ينبوعِ صراخٍ واشتهاء
فاكهة يمزقها الحنينُ إلى الرحيل
نجمةً يشطرها ضبابُ سفينةٍ
تغرقٍ.
مجدُك الجنايات يصبّها السحرةُ
في آنية الشُّبُهات.

على الرؤوس وضعوا إكليلَ وصاياك
وراحوا يعثرون المحيطاتِ كالمسبحةَ.

أيتها الروحَ تَقْتُلينَ وفي قتلك
براءةُ المُزْنِ في عيون الضحاياَ

لتكن سعادتك حجرَ الانتهاك
في حدائق الاضطراب
لنكن
نحن أبناءك القادمين
نُلْهِبُ بالسِّيَاط
ظهرَ
الأبجدّية.

❖

بعيداً .. بعيداً
فوق هضبات الجثةْ

كان على هذا النهارِ أن يقطع أناملَه
أمامَ العتبة.
كان علىِ الصقر أن يحلق بعيداً .. بعيداً
فوق هضَبات الجثّة.

كان عليكم كهنةَ الشعراء
أن تكونوا أوفياءَ لصاعق الخيانة
كان على العربي...؟
كان على القَتَلة أن يكونوا مضيئين
بقدرة غيمةٍ
أوِ تميمةٍ
تدلفُ ظَرفاً غامضاً يتطيرّ فوقه ثعبان.

كان على البحيرات أن تنشط في ذبولها المعتاد
قدوةً بأسلافها الينابيع،

لكن ثمة نهار آخر
بقابلاتِ ضوئيةٍ
يتوالدُ مثلِ جيشَ احتمالات لمجزرة قَيْدَ الدرس
ثمة كلامٌ عن الشعوب المقهورة
وتلك التي لم تُقْهر
كلامِ يشرّع
نوافذه
على الخواء.

أُحسُّ نبضك غير قابل للاحتراق،
روحاً تسرفُ في النَزْف
جفناً يستهل نواحَ يمامة
متلبّسا بجرائم لا حصر لها
من الانحرافات اللولبية
ليسِ أقل منها مثلاً
حينَ تمضي وحيداً
في غابةِ يتصاعدُ منها هذيانُ سمكةٍ
ورأسُ قتيل
ليس أقل منها رؤيا انتحارك
بمسدّس تقدمه قهقهةُ الريح
وستضحك كثيراً
بعد الطلقة الأولى

حين تعرف أنكَ سيدّ هذه الملحمة
من اللاجدوى
ستضحك لأن موتَك سيرتفع
مثل برجٍ من الأجراس
تتقدم موكَبه شجرةْ
ربما حلمتَ بها كثيراً
وأنتَ تمشي في طرقاتِ أهدابك،
حلمُك الشجرة
طفولة تجرّها عربةُ النعاس
في
سماءٍ من الدم.

وهناك أشياء تجبرني على الاعترافِ
بماضي الفراشات،
وأفعالٍ وحشَية لم أرتكبها،
غير أن وقعَها يجرف الدمَ بمكنسةٍ من لُعاب.

هؤلاء القضاةُ يقصفون ذباب الحروب
بطائرات ورقية
كخطوة أولى نحو العدالة
وأحكامهم تزهر أنواراً غريبةً في أحداقِ العامةْ.

سيلٌ من الارتعاشات على
جديلةِ طفلٍ مات في بيروت
ممسحةٌ وأقلامُ رصاص دامعةٌ
يحملها ذئبٌ إلى وعل ميّتٍ
في غرفة العمليات.

أقول هذا معترفاً بجهلي في أمور السياسة
أكثر من كوني أتعاطى القتل مع شاعر مات
لأسباب استراتيجيّةٍ
وأخرى في حديقة عامة
ومن ذا يتنبأ بالآتي وسطَ
كسوف الغرابة
وكرنفالاتِ القتلى.. يخلعون أوردةَ الفجر.

❖❖❖

ها أنا أتحوّل إلى عندليب
يفترس خمسين فجراً وجبةً واحدةً
ويغسل يديه
في
طقسِ البحيرات.

لأفقأ عيونَ الزمن المتسلّل من غابة أصابعي
لأفقأ عيون اللحظة المحتدمة
أودياً جديداً يتسكع في شوارعِ بيروت
لكن يلزمني وقتٌ لذلك
وقتٌ لانهيار المدن المدجّجة بحرائقَ
تطلقها مسدساتٌ يائسة
يلزمني وقت لرصف الجهات
بفكرة الهتك وأحجار الألوهة،
وقت لكي أدفع عربة الجنون إلى الطرف الأقصى
من الهاوية

لستُ غبيًا
لأضمّد جرحَ الحمائم.
هذا الإصبع الذي يمتد كساقِ ملاكٍ
تنقصه الجرأةُ كي يجوسَ مناطقَ الخراب في أحشائي.

❖

عنقاءُ استعادتْ براءة الافتراس

أعرف أحياناً ما تخبّئهُ الحياةُ لي:
سيلٌ من الثكنات تحلق مثل طيور في ضوءٍ باهت
عنقاءُ استعادتْ براءة الافتراس
لاينقصها إلا أن تُنيخَ أحمال ذَكرياتِها
فوق تلة أظافر
وتفكَّ رموزَ اضطرابها على شاشة الألم،
الألمِ وقد غطَسَ بمنقاره في بحيرة أضلاعي،
وهناك سائحون يتفرجون
على معالم جسدي
مأخوذين بدبيب النمل وصراخ الأزقة
حيث كان أبي يخمّر ذكرياته الريفَيةَ
في دِنانٍ مليئةٍ بمنيِّ القطط.

ذكرياتٌ لا أستطيع التحدّث عنها
لأن ساعة أضلاعي تعلن مواعيدَها الأخيرة

فِي رِئة الأسطورةْ.
وبطُرقٍ مزهرةٍ بالنعيق
قادَني الضوءُ إلى جمجمة امرأة وقد
دهنتْ سرّتها بلعاب الوحشة
تنتظرني دوماً
على مفترق خيالات الموتى
وقد نزفوا آخر صرخةٍ
في ضمورِ
الأبدية.

❖

عيادة

سقطتُ من كهفٍ بعيدٍ على رأسِ موعدٍ
يقرعُ جرساً لإنذار سفنٍ لم تعد موجودةً
وحين سقطتُ عاشرةً
على رأس امرأةٍ
يشبه عيادةً مهجورةً بسبب الطاعونِ،
أعدتُ للعاصفة
اعتباراتها الرائعةَ في حوارِ النائمين
على السفوح:
هكذا استيقظتُ صباحاً لأجد رأسي
ينام مع وساوسه في حديقة لا يفصلها عن القيامة
إلا مظلة امرأةٍ
وحيدة.

❖

امرأة الانهيارات السعيدة

فِي قصرها بين تلال الفصول القتيلة
تُحرِّكُ شعرَها بأصابع النارِ
وكانت مخلوقاتُ الغيم تُطلُّ
من شرفاتها، متمرّغةً فيما يشبهُ دخانَ الشهوةِ.

منافي... منافِي وطفولاتِ
أزهرت حركةَ الإصبعِ
الملولَبِ في خاتمِ
الجسد

فجأةً.. انهارت سقوفُ السماء مثل تلالٍ ثلجيّة
وصار الكون يلبس ياقوت البدء
ولا شيء غير حنين العودة إلى الانهيارات السعيدةِ
في صمتِ هذا المشهد.

المساء الماكر

في مستنقعات المرايا الزرقاء
وذاتَ المساء الماكر
وقف الأباطرَةُ الغامضون
يحدّقون في الذاتِ الهاربةِ
لفجرٍ مقتول
حيث أزهرتْ حديقةُ السكاكين
أحصنةً وقطاراتٍ راكضةً
بين الرأس والجسدْ
وصارت الأشياءُ التي تفصل بين
آهة المرايا
وجسارةِ الموت
غاباتٍ متلألئةً في مقبرة الأميرة.

❖

الغيابُ قَمَرٌ للأنوثة

إنها الحرب
تجلس في زاوية المقهى
تمشّطُ شَعَرَها وتشربُ لبنَ التاريخ
وحيدةً وفي براءة الكائنِ البديع
تؤرجحُ أهدابَها في فضاء الجماجم.

امرأة تلد البحيراتِ الرشيقة
وتسرحُ في مراعي الاحتمالات.
تَسْتَمني وسطَ رجالٍ شَبَقين
فكأنَما الغيابُ قمر للأنوثة
والأراجيح الوحشية لسديم الخلق
قلائدَ في صدر السّيدة البابليّة.

❖

حَدَاءاتٌ

ابتكرِ مغامرةً تقطنها ثعالبُ
قادمةٌ من «سمائل»[1].
تلعب البلياردو على طاولةٍ تُهرسُ فيها جثة.

وحين فاجأتني قطعانُ الرعود
فتحتُ لها صالة رأسي
وأغلقت النوافذ.

حداءاتٌ تخنق غراباً بربطة عنق
وتفرد أجنحتها في رحم امرأةٍ:
تلك إشارة إلى أن المدن
غادرتْ مواقعَها
نحو الحلَبة.

(١) سمائل منطقة بعُمان

مرة أخرى هذا الصباح

الصباحُ.. مرةً أخرى هذا الصباح يكسر
جناحَ قبرّاته فوق رأسي
مرة أخرى أنوي صياغة موتي
ولا أقيم حداداً على شيء.

الشارعُ الملطّخ بلعنات المارة،
ينسجُ من عروقي ذكرى مزبلةٍ
أو زهرة كاميليا.

أصطفُّ في طابور العربات
وأنسى أنّ جدّي كان فلاّحاً
يوزع ذُرته على الجمّالين
حيث يأخذني صوتك
مثل صرخةٍ أضاعها الرعيانُ في وديانٍ سحيقة.

مختارات من

«رأس المسافر»

المغرب ١٩٨٦

مدينةٌ تستْيقظُ

تستيقظُ آخرَ الليل،
تُلقي نظرةً على الشارعِ الخالي، إلاّ
من أنفاسٍ متقطعةٍ، تعبره
بين الحين والآخر.

وحدَهُ النومُ يمشي، مُتنزّهاً بينَ
قَبائله البرْبريَّة،
تتقدَّمه فِرقةٌ مِنَ الأقزام.

وهُناك رؤوس وهميةُ تطلّ من النوافذ
على بقَايا الثَّلج الملتصقِ بالحَوافَ وكَأَنما
تُطلّ على قسمتها الأَخيرة في
ميراث الأجداد.
المَصابيحُ تتدافَع بالمناكب، قادمةً
من كهوفٍ سحيقةٍ

لا تحمل أي سرٍّ.

السماءُ مقفرةٌ منَ النجومِ
الجِمالُ تقطعُ الصحراءَ باحثةً
عنْ خيامِ العَشيرة
القطاراتُ تحلُم بالمسافرينَ.

لاَ أَحدَ... لا شيء..
أغلقِ السّتارةَ
فربَّما لاَ تحتملُ
مشهدَ مدينةٍ تستيقظُ.

❖

مِن الغُرفَة إلى المقهى

في الصباح عندما أَستيقظُ
يستيقظُ العالمُ في رأسي،
بكائناته وزَعيقهِ الذي يهرُسُ العظامَ.

أغادر غرفتي التي تُشبه كهفاً مليئاً
بالقَتْلَى
وأدلف المقهى،
أُحدّق ملياً في الفنجان الشّبيه بأفعَى
تَسترخي في ظهيرةٍ صيفَية
وأفكّرُ أَنهُ فنجاني الأخيرُ في هذه المدينة.

لكنَّ النهارَ في أَوّله
وأنا قادمٌ على حروبٍ وقُبلاتٍ
أكتشفُ نكهتَها بعدَ
قُرونٍ.

بخُطوةِ الغيْبِ

ثمةَ ما يُؤْذنُ بانفجار اللَّحظَة
ثمةَ في الشّارِع امرأةٌ تقطَع القَلبَ
بخُطْوة الغيب
ثَمةَ قامةٌ تُشمِّر الساعدَ
عَن خِيانَتِها الكُبرى.

طُوفان الشُكوكِ يجثُم علَى
الصَّدر
وفي اللَّيلَة نفْسهَا،
يفتَحُ الرأسُ أبوابَهُ
مثلَ ثَوْرٍ يدفع عاصفةً نحْو هِجرتهَا
الأبديَّة.

❖

كُلُّ هذَا العُمْر

ثلاثُون عاماً.. كلُّ هذا العمر الذي
حَوَّشْتُهُ من دهاليز الأجداد،
يَفيضُ الآنَ على كَتفِ الصَحْراءِ
وأنهارها الجافَّة،
وفي شَوارعَ أبَاحت هذَا المساء
كُلَّ أسرار مزابلها الخاصَّة،
مضيْتُ باَحثاً عن ظلِّ قدَمي الذي
أضعْتُه في مُعترك الحضَاراتَ
ودكاكينِ الخُضار.

أجلسُ علَى مَصطَبةٍ في الشَّارعِ
أكتبُ مسودةً للحروب القادمة
وملاحظاتٍ حوْل طبيعة الطقْسِ
السريِّ لأَحلام الرُّعاة
وَعمَّا قليل ألْتقي بالمرأة التي فرغَتْ

للتوِّ من تقْليمِ أَظَافرِ الكَواكب
وجلسْتُ على ضوءَ الأُفقِ تستنطقُ أسْرارَ
الغيْب كسلَّة هواجس مُعلقةٍ
في زنْزانة

وأخيراً، وليس بأخيرٍ، أجلسُ علَى مصطبةٍ
أُخرى، على بُعْد ألفِ سنةٍ ضوئيَّةٍ
من الأُولَى
أبحثُ عنْ ظلِّ امرأةٍ لنْ ألقاهْ.

❖

بمناسبَة العامِ الجَديد

مُنذ أنْ تمطَّى جُثتي نَعيقُ
السَّنوات
وحلَّق الطائرُ الشتويُّ
في عُنقي،
انبرَتْ أحداثُ سَنَتي الأُولَى،
سَنة ميلادي،
نحْوَ زُرقة الأَبدْ
مثلَ شاحنةٍ غرِقتْ باحتمالاتِها
في لُجّةٍ.

❖

هِجْرةُ الأَسْلاف

منَ التفاتَة ذئْبٍ أرى في ضحْكته
هَجرةَ الأَسلافِ، انفجرت هذهَ
الَطرِقُ التى لا ينَامُ فِيها المُسافِرَ إلاّ
ورأسه مسنودٌ إلى مُعضلة
وربّما يحلُم بعْد كأسِ النَّبيذ أنّه
راحلٌ غداً
وأنَّ شرايينَه تتوزّع فِي عينيْ
جائعٍ، يتسلّقُ صرخةَ احتجاجٍ.

عبرْ المسافَاتِ التي أفْرغَتْ عُواءها
في قلبه،
يهيمُونَ، يزحفُون جميعاً كالأَفاعيِ
الجَريحة
تتعثَّرُ في ذاكرة الشّتاء
نحْو المقاهي ذاَتِ الصّدر الَماسيَ

ذات الأَضواء المُركّزة على أثْداء
نساءٍ تخْرجُ الفُصولُ كالجرْذَانَ
من أحلامهنَّ الشبقة، وقفَ
الرجالُ، يرْتقُون شُروخَ النّهارِ
الأحاديثُ برنينِها الحائرِ كحجرٍ مقْذُوفٍ
إلَى الخلْف
النظراتُ، التي تجُوس خرائبَ عابقةً
بالذّكرَى
إذْ ليس إلاَّ حوافرُ الثأرِ
تحفر هذَا الرأسَ المفتوح علَى
نهاراتٍ لاَ تنْتهي،
نَهاراتٍ تحملُ ثقْل ليْلها المُوحشِ
وستخْتَفي المرأَة في رأسكَ
حَالمةً، برِيفٍ معُلّق منْ قدميه
في
فراغِ
المدينة.

❖

كلٌّ شيء لْم يَبدأ

كُلُّ شَيءٍ بدأَ
كُلُّ شيْءٍ لْم يبدأ
هكَذَا أبداً
تموتُ وعولُ النَّفْسِ في
خُضرة الصُّراخِ
هكَذا تنْدلِعُ حروبٌ تَغرقُ فِيهَا
سُفنُ الأَفْكارِ
وَهكذا أيضاً أَحلمُ
أنَّني قائدُ أُورْكِسْتْرَا
فِي جُزُرٍ
تشْتعلُ فيها النِّيرانْ

❖

أحشاءُ الصَّبَاحِ

إلى يوسف سامي

الصَّباح يجُرجِرُ أحشاءَه تحْتَ
قدمِ التِّيه
والمَساءُ دَائماً تْحت معطَفِك
عينٌ جاحظةٌ
وأُخرى تُراقب الغيْم يسْقُطُ
فوْق الجبَالِ
تسوقُ قطيعَ السَّنواتِ
بعصْيان المحبَّة
وتَحْتَ الشَّجرَ المضرَّج بالغُروبِ
تجلسُ وَحيداً
كَشارعٍ تلسَعُه أفْعَى
بينما خطواتُك المُتعثرةُ بأحْجَارِ الأُلوهَة
وأحلامٍ لا تتَحقّقُ
تنْهمر على أوجُه المارَّةِ
فُلوَلُ لعَناتٍ.

في رُؤياكَ الأخيرة: «ابنُ عربيّ»
يسرقُ قبّعةً
منْ طفلةٍ
ويتغذّى من لُهاث الشّجر الطّالِعِ
منْ قَعر المُحيطات.
لَكنّكَ المنفيُّ أبداً
وَعَلَى بُعد خُطواتٍ
منْ موتِك

❖

مسخ

أيُّها الدَّم المتدفِّق مِن شريانِ
يمامةِ
ومَن قطيعِ الزَّرافِ الراكضِ
في خضمِّ الغَاب
يَا دمَ الصَّرخة الأُولى في بَهيم البَدْءِ
دَم السَّلْطَعُون
ووحيد القرْن
وقَوافلِ النَّملَ التي وَرِثتْ
عَرشِ سُليمَان
حيَثُ سقطتْ قناعةُ الأنبياء
في بطْنِ سمكَةٍ.

أيُّها الدَّم الأولُ
أعرفُ أنكَ دَمِي قبْل أنْ يتشكَّلَ
هذَا المسخُ.

ذِكْرَى

إلى والدي ناصر بن عيسى

كَانَا جبلَيْن تستريِح بينهُما صرخةُ
الرُّعاة
كَانَا منْحُوتيْنِ من بَازلْت العنَاق،
علَى الذِّروة تُحلِّق طيورٌ غاضبةٌ ترْمي
علَى السفُوحِ بهمِّها المُقدَّس،
ومن بيْن الضباب الأزرقِ، شاهدْنَا
زرَدَ البُحيرات يغْرقُ في ذهب المساء.

سَعيدَيْن بهذا الحُطام الذي تَنْهبُهُ
الخيولُ بيْنَ حوافرِها في تلْكَ
الوهاد العصيةِ حتَّى على النسر
الذي يَبْحَثُ فيها عنْ
أسرارِه،
وَالضَّبعةِ عن دَواءٍ لأطفالِهَا.

الغيومُ تلد التَّوقُّعات
وَلاَ هواءَ يُطوِّح بالأَفاعي التِي
تحبلُ بها الظُّلمةُ الحادة.

صمْتُ الجهات
مطرُ الذِّكرَى.

كأنَا جبليْنِ منحُوتيْن من بَازلْتِ القُرونِ
يَذوبان فِي رأَسِ المُسافر
مثلَ مجرّةٍ سقطت بسُكّانها في البحر
وكانَ اسمهما «لسانَ الطيرْ».

❖

دِيارُ الأحبَّةِ

هَا هي رُعُود الانتقامِ تقْصِفُ
ديارَ الأَحبَّة،
فَتطيرُ النوافذُ والأَبوابُ لآخرِ زُقَاقٍ في القارّاتِ
التِي لم تُكْتَشفْ بعدُ..

أدَركْنا ذلكَ حينَ شاهَدْنا
الذكرياتَ تحُوم فوقَ الأَطلالِ
مثلَ ابتهالاتِ
تَقذفُها
طيورٌ ليليَةْ

❖

القَدَمُ النرجِسيَّة

فيِ اللَّيلة نفسها التي لاَ تُحلِّق العقبانُ
فيهَا إلاَّ عَلى رَؤوسِ
ضحَايَاهَا،
رحلتْ قَدمٌ قرويَّةُ المزاجِ
إلى حيثُ لا تنتهي الرِّحلةُ
بيْن أصابعهَا كانت الآفاقُ تتحرَّكُ
مثلَ حشْدِ نُجوم تَتَهيَّأُ للقفز
وَفي ظلّهَا الشَّبحيِّ، فرَشَ الحُلمُ
ساحةَ تَمرحُ فِيها
التَّعابينُ.

لمْ تكُن وليدَةَ تَخْطيطِ ولاَ صُدفةِ
كانت هكذا وحيدةً
تطلق صرخةَ الضياع في
مَهَبِّ القارَّاتِ

مثْل منارةٍ خلعتْ ضَوءهَا للبحر.

وفي الطَّرف الأقصى لديجُورِ
فحيحها، كانَ القلبُ يَسْكنُ
غابَتَه السِّريةَ،
بَاحثاً عن مَرايَا الأَبدِ في حُطام الذُكْرى.

وَفي المدن التي لا تتَّسع إلا لحديثِ
عَابرٍ، كانَت الأرضُ مدْلهمَّةَ
بالاقْدام.
أَقدامٌ تتبعُ خيطَ المستقبلِ الواقعِ
في مأزقِ الولادة.

أقدامٌ آسيويةٌ، إفريقية
أَمازُونيَّةٌ،
تحْلم بالعودةِ وأُخرى بالرَّحيل نحوَ
جُزر النَّهب
أقدامٌ تحْشر أسلافَها في زُرقة
ليلٍ يشبه ذاكرَة الغريق.

أقدامٌ أو قدَمي وحْدي (ليكُن)
التِي ولدَتْ سرَّها في

عَرِينِ النَّمرِ ليستشْرِيَ في المُدنِ
مثلَ شحَّاذٍ مُصابٍ
بالسَّرطانِ.

القدم التي لا تستسيغُ السَّعادةَ
إلاَّ خلسةً
وَعلَى حافةِ هَاويةٍ.

وللقَمر أيضاً قدمُه النرجسيَّةُ التي
تَرفُس الشمسَ
بُغيةَ احتلالِ الموْكب،
يتجولُ القمرُ وحيداً، نراهُ بيْن حشْد
الأَقدام والرؤوس
مُضيئاً طرفَ الحَانة
كَما يُضيء السجينُ في زَنزانته
ولأُمي كَانتْ قدمُها التي تنوءُ
بثقْلِ المذَابح
قَدمُ الكُمثْرى
وأنينُ المسافات.

لمَ أكنْ أعرفُ سر الأَقدامِ،
حتّى تربّع النَّسرُ في عرْشه الفَظيعِ،

خَالعاً وَتدَ النَّميمةِ في صرخةِ
الرَّعد.

وَلأنِّي كُنتُ المدُعوَّ لهذه الوَّليمةِ من
الأقدام والأدمغة المُستفزَّة،
غامرْتُ بسُمعتي الأَخلاقية
لأَكُون سيِّد المأدُبة أَوْ خادمها،
بحيثُ لاَ تُنْقصني الأرابةُ للْوقُوعِ
دَوْماً بيْن أَسْنان ذئبٍ.

أَهكذا يبدأ المجوسُ رحيلَهم
تاركينَ في كُلِّ طريقٍ أَثراً لجريمةٍ
عذْراء
وبَقايا عشاءٍ
يَمتَدُّ حتَّى الأبديةِ.

❖

مشهدٌ مُكرّر

مَا بين شارع الشُّهداءِ في الحيِّ التَّاسع
و«السَّان ميشيلْ»،
تُحلّق حِكَمةُ اليْوم بأَنْفاقِ المتْرُو.

الطيورُ تحتلُّ الثّكنات بصيَاحها العجيب
المهُاجرُونَ ينتْظمونَ صُفوفاً أَمام التّفْتيشِ
وَصداَعُ الرّأسِ لاَ يأتي إلاّ بمزيدٍ
مِنَ المحبّة للفئرانِ.

مُشْهدٌ عابرٌ لامرأةٍ مغتصبَةٍ
قردٌ يعْوي،
تُحيطُ بهِ مجموعةُ فيَلةٍ جُلبتْ خصيّصاً من الهِنْد،
بينَّما العُراةُ والسّكارَى يحتْلُّون الحَلبَةَ
بشفاه يَابسة،
متَمنطقِين بزّنار مِن الضّفادع.

حَفنةُ نجُوم تهذي أمامَ المخرجِ
وَالسَّماءُ تُلفحُ الأرضَ بِمصلٍ جَديدٍ.

تصلُ المقهَى أخيراً
وكأنّكَ اجْتزتَ أرخَبيلاً خُرافيّاً فيِ نَومكَ،
حيثُ تتركّز نحوكَ نظراتُ الزّبائن
وَالكلماتُ التي تحتْدمُ فيِها المَصائرُ.

تَنْظُر إلَى الخَارج:
القَوارِبُ مازالَت في مكانها
الأَشجارُ تتمايلُ بفعْلِ ريحٍ خفيَّة
والنهرُ الذي ابتلع قُروناً، بْدأَ يلتهمُ هدوءَه بِعمقٍ.

وَحين تكوُن راجعاً إلى بيْتك يتكرَّر نفسُ المشْهَدِ
مَعَ زيَادَةٍ خفَيفةٍ: فَالرّجالُ المُلثَّمُونَ الذين
يَعْترضُون طريقك، ليْسُوا إلاَّ ذئاباً طردَهَا
البرْدُ من الغاباتِ.

❖

سهرة

كُلُّ شيءٍ بانتظارِهِمْ:
الكؤوسُ والأَدْمغةُ وعناكبُ الرفوف،
والصالةُ وهي ترسمُ بِلُعابِها المدْعُوّين،
لتغطي بياضَ عريِها المائلِ للوحشة
سننتزعُ مجدَ هذه اللّيلةِ من حنْجرةِ الوقْت.

الأَبوابُ مُشْرَعةٌ منذُ القِدَم، تدْخلُ منها
ذئابٌ صغيرة، تُشاركُ المَدْعوِّين
في الرَّقْصِ

هُنا في هذا المكان، اجتمعتْ هجراتٌ كثيرةٌ
أطلَّتْ من نوافذِها البحريَّة، رؤوسُ دلافينْ.
في هذا المكانِ ذَبلتْ مسافاتٌ كثيرةٌ، يعرفُها
سائقو القطاراتِ
جيِّداً

فِي هَذا المكان أَمْطرتْ سحبٌ كثيرةٌ
يَعرفُها القَروِيُّونَ
جيِّداً
وَقَدَمُ الهيستِرْيَا قادَتْ شِعابَ الذَّاكرةِ
في غُلواءِ اللَّيل.

ومنْ هذَا المكان رحَل الجميعُ إلى بيوتهم، تاركينَ
ذئاباً صَغيرةً تحدِّق في ديكورِ الصَّالةِ،
حَيثُ الأغاني ما تَزالُ،
سكرانةً، تُدخِّن سيجارةَ
الغيابْ.

❖

وجوهٌ تَطلعُ من السَّديم

حيْثُما تقَعُ عينُك علَى حَديقةٍ
أوْ مبْنيٍ أَوْ إنْسانٍ،
يشْتَعلُ فيه شبقُ الحريقِ.

حيْثُما تَهيمُ علَى وجْهكَ ضَائعاً
في الدُّروبِ والأَزقَّة، تَسْتحيلُ
إلى طفلٍ يقْذفُ أمعاءَهُ في الرَّصيفِ.

لقدْ نسيَكَ الجميعُ إلا روحٌ
يظَلُّ ساهراً بينَ
حنَايا عظَامكَ القصْديريَّة،
حيثُ تتنَاوَبُ الفُصولُ علَى
أَبْوابها الكَثيرة.
هلْ تتبعُ خُطوَاتِ حذاءٍ يتجوَّلُ
في أعماقكَ؟

أَمْ تمضِي إلى شارع آخرَ أو
كتابٍ يتحدث عن
انتحار فيلسوفٍ
في مبْغَى ؟

لتلْمَّ كلماتكَ المبعثرةَ في وجْوهٍ تطْلعُ
دَوْماً من السَّديم
فعمّا قليلٍ يأخذُ المدْعوُّون طريقَهم إلى الموْتِ.

❖

مرَايا القِفار

فيِ القطارَاتِ التيِ تحْملني دائماً
إلىَ البَعيد
وعبرْ مرايَا قفارِ أفقيةِ، نَزقةِ
لا أكادُ أتعرَّفَ
علَى وجهي الذي
خمَّشتْهُ طيورُ الهجرة.
لكني حينَ أنزعُ قُفَازَاتِ الرؤيةِ
عَن حدَقة الظَّلامِ
وَفيِ الأنفاقِ السَّحيقةِ
للأَلَمِ الإنسانِّي،
أَتجشّم المسيرَ ثانيةً
لَعلّي أَرى ما لا تَراه عينُ الصُّوفيِّ
أو السِّندبادْ
(لؤلؤةً أو امرأَةً
أو فِكرةً)

أو العدمَ الذي
تجرفُ وديانُهُ
الجميعَ لحظةَ
صَحوٍ زائلٍ.

❖

نجْمةُ الأعاصير

لَيسِ مَا يجْعل الصَّباح نديّاً هذَا اليومَ،
غيرِ ذلك الانْبجاس الخفيِّ لهِياج الرّوحِ،
مُتربعةً فِي صَحنها القَمريَ
غيرِ هذَا التلعْثمَ فِي وجْنة النُحاسِ.
امرأةٌ تُحرق عشب القارّات
لُتضيءَ نجْمَ الشّكيمة المتدلّيَ
مَثلَ نِيّة انتقام لِسَمَاءِ مُدْلهمّةٍ.

تَقْطعُ ذراعَ الفجْر مِنْ أجلّ ظلهِّا الهاربِ
فِي مفَازَة الأبعاد
تَسْتجلي لآلئَ الشّكّ
فِي مرْكبة البرق
فكأنّما الرَعودُ طَرائدُ لأَحلامهِا
الليليّة،
لاَ شيْءَ يُستثنى مِنْ قبْضة ومْضها،

المُستفزّ حتّى
مكَان السّرَة النابت
في مقْبرةٍ
بجبَالِ الهملاَيَا.

سَعيدةٌ أحياناً سعادةَ المُبدعِ باكْتمالِ
قصيدة
أَوْ سعَادَةَ النّسر بالتهامِ ذروةٍ
جبليّة
وَحزينَة، رُبما كانَ ذلكَ
حين تدخلُ ريحُ الجنوبِ إلى رأسِها
المَخضّب بعواء
المقاهي والقطارات
ترنُو مِن وراءِ النّوافِذِ والأسْلاك
إلى
عيني ضبع مُسنّ
لتعرفَ اتجاهَ الأَعاصير
وَتستدير، استدَارةَ شمْسٍ
في ليلتها الأبديّة.
غيْمةُ جنس تجْأر بالفضيحة
ومَنارةُ هذَيانٍ لأَجيالٍ تلفتْ
منذُ قرونٍ

لا شيء يرْحل عَن مدَى نَاظرهَا
إلاَّ وتحصُدُه بفأس النُّبوءة،
النبوءة التي تَتنَزَّه فيِ شرَايينهَا
مثلَ ضبٍّ يتنزَّهُ
فيِ مغارة الليلِ
تفْركُ عينَيهَا المُرهقتَيْن من سفَر
الأَيام الطويلَة، حيثُ كَانَ البَدوُ
يُحدِّقون فَوقَ أحصنتهمْ وهي
تتوارَى خلفَ زُجاجِ الأُفق
وتسقُط مثل نيْزكٍ في شواطئَ
مجْهولةٍ.



قصيدةُ حبٍّ إلَى «مطْرح»

حين تمدَّدتُ لأَول مَّرةٍ على شاطئك
الَذي يُشبه قلباً، نبَضاتُه مناراتٌ
تَرعَى قطعَانَها في جبالكِ الممتدّة
عبْر البحر.
أُطلقُ بينَ مقلَتيك منجَنيقَ طفُولتي
وأصَطاد نوْرساً تائهاً فيِ زَعيقِ
السُّفُن.

نُجومُك أميراتُ الفراغِ
وفيِ ليْلَ عُريك الغريبِ تُضيئينَ
الشُموعَ لضحاَياك كي تُنيرِي
طريقهم لِلْهاوية.

أَبعثر طيورَك البحريةَ لأَظلَّ
وحَيداً. أُصغَي إلى

طفولة نبضك المنبثق من
ضفافَ مجْهولَة،
تُمزّق عواصفُها أشرِعةَ
المراكب
كَمْ منَ القَراصنة سَفَحُوا أمجادَهُمْ
علَى شواطئك
المكتظّة بنزيفَ الغربان
كمْ منَ التُجارِ والغزاة
عبروك في الحُلم
كمْ من الأطفالِ منحُوك جنونَهْم
مثل ليلةٍ بهيجةٍ
لعيدِ ميلادٍ غامضٍ؟

القرويُونَ أَتوكِ من قُراهمْ،
حاملين معهم صيْفاً من الذكرياتِ.

مطرحَ الأعياد القزحيَّة البسيطة
والأُمنيات المُخَمَّرة في الجِرارِ،
الدّنيا ذهبَتْ بنا بَعيداً
وأَنتِ مازلْت تَتسلّقينَ أسوارك القديمة.

وما بينْ الطَّاحونةِ و«المثْعابْ»

يتقيأُ الحطّابونَ صباحات كاملةً،
صباحاتٍ يطْويها النسيانُ سريعاً.

هَذه القلاعُ بقيت هكذَا تُحاوِرُ
أشباحاً في مُخيّلة طفْل، حيثُ
بناتُ آوى يتَجوّلْنَ جريحاتٍ
بينَ ظلالِها كموْت محتَملٍ
وحيثُ كُنا نرى عبْر مَسافةٍ قَصيرةٍ
ثُعباناً يختن جبلاً في مغارةٍ
لَم أنْسَك بعدَ كُلّ رحلاتي اللعينة
لَمْ أنسَ صَيّاديكِ وبَرْصاكِ النّائمين
بيْن الأَشجَارِ.

حينَ تمدّدتُ لأوّلِ مرّةٍ
كَانَ البحرُ يشبه أَيقُونةً
في كفّ عفريتٍ
لأَنه كانَ بَحراً حقيقياً يُسرّح زبَدَه
في هضاب نساءٍ يحلُمْن بالرّحيلِ

حينَ تمدّدتُ لأَول مرةٍ
لمْ أكنْ أعرف شيئاً عدَا
ارتجافةِ عصْفورٍ

فِي خَصْرِكِ
الصَّغِيرِ

❖

بائعةُ فطَائر

دائماً أقطعُ الطريقَ المؤدّيَ إليهَا
وَهي ترمُق صباحاً يطلعُ من رأسِ
بُحيرة،
بيْنما كلبُ المقهى يزدادُ نباحُهُ
كأنما حدأةٌ ستمزّق مضجعَ الحارة بعد قليل.

الشّاحناتُ عبرتْ في اللّحظة حَدبةَ الجسورِ
لتستوْطنَ قلبَ مشرّدٍ (خاصّة وقتَ النومِ)
أرَاهَا تهْرش اللحمَ كالطُّيور الجَارحةِ
وتختْفيَ في أَزقَّة الشّرايين.

لكنّ المطَر لا يزَالُ ينزل أَمامَ دُكانها وهيَ
ترتّب الفطائرَ بهلْوساتِ ملاكٍ.
فطيرةٌ واحدةٌ.
٤ فرنكاتٍ

وتختفي الشَّاحناتُ والنباحُ في
أنفاق المترُو، أَستمعُ
إلى عازف «الجَاز» الذي لمْ يَعُدْ يتحدَّثُ
عَنْ أَيَّة أَحلام.

«كلُوشَار» نائمٌ، بين تعاريج صرخَاتِه،
أَرى قطيعاً مِن الثِّيرانِ
الوحْشيَّة
تتدفَّق على الشَّوارِع المأهولِة بالقتْلَى
تاركةً
بصَمةَ الزَّمان.

❖

زوْرَقٌ في المغِيب

وأنتَ هنا أو هناك
لا يجب أَن تلْتفتِ كثيراً إلى الخلفِ.

الغيومُ المقذوفةُ علَى كتفيْكَ
من النوافذ،
تُشبه نظراتَ امرأَةٍ
رأيتُها قبلَ قلَيلٍ في الحاَنةِ
والطَّرقاتُ المليئةُ وقدْ
تركَها أصحابُها مع الفجْرِ،
ذاهبينَ إلى الحرْبِ،
وأنتَ هُنا، محدقاً في الطُّيور
التي تحْمِلُ في منَاقيرَهَا العواصفَ، اعوجاجٌ
لا تنقصهُ الاستقامة
غرابٌ يتقمَّصُ هيئة عصفُورٍ بلا واسطة.

وأنت هنا أو هناك
جالساً أو ماشياً
فوقَ الجبالِ أَوْ في أسفَلِ السفوحِ
حيثُ البَراكينُ، نشْوَى، تُزغرِدُ
فِي أعراسِ المدُنِ.

هكَذا أنتَ:
خطوةٌ وحَيدةٌ تُدحرِج زَورَقاً
فِي المغَيبِ

❖

النَّومُ

كُلَّ صباحٍ حين تنْهضُ مِن نوْمِكَ
الضاربِ في القِدَمْ،
تفتحُ نافذةَ
تدخلُ منَها مُوسيقَى
ورجالٌ يحْمِلونَ علَى أكتافِهمْ
قواربَ
تَسطَعُ فوقَها شمسٌ مرِيضةٌ.

وكَانَ الجميعُ مربُوطا
بقَدمَ العاصفة
اَلتي تُرتِّب نوَايَا رحِيلهَا
في نوْمكَ
الذي لمْ تستيَقظْ منه بعدُ.
النافذةُ مفتوحةٌ، وأَنتَ
تقْتلعُ رؤوساً

بشـرِّيةً
تَظهرُ على شكلِ
نُجومٍ
في فِنجان القهْوةِ.

لحظاتٌ
وستَغِيب في زحامِ الشارعِ.

❖

مختارات من

«مُدْية واحدة لا تكفي لذبْح عصفور»

عُمان - الإمارات ١٩٨٨

المياه البعيدة

في المرايا الداكنة لمياهٍ بعيدة
يحلقُ طيرُ الرغبةَ خلفَ أفقٍ مسدود
الوجوه المشطورةَ بنعيق السنوات
المدن اللاهثةُ على حافة نومكَ
العرباتُ النابحةُ خلف الأسوار،
كأنما جئتَ إلى سَفَرٍ قَبلَ الولادة
تمضي وراءَ جنازٍ كبيرٍ من الذكريات
بقميصٍ ملوثٍ بدم المسافة.

الجمالُ فقَدتْ ذاكرتَها
وتاهت في الأزقة،
والسلالاتُ الراحلةُ عبرَ الصحراء
غَرقَتْ بكاملها في الرمل
تمضي بخطوةٍ وحيدة
تاركاً لكل مكانٍ جُرحَه الخاص،

ولكل منارةٍ زنّاراً من الصرخات.

وبجسدٍ مضرّج بالرحيل،
استْوقَفَكَ القادمونَ من المياه البعيدة،
لَتَرى خَطيئتَكَ الهاربة.



متحفٌ من ظِلال

طيورٌ بيضاءُ تعبُر الأنهارَ الكبيرةَ،
في الليالي الأكثر وحشةً من أراملِ الحرب.

جُسورٌ وأشجارٌ مغمضةٌ تتنزه
مع العابرين،
وكأنما في متحفٍ من ظِلال.

ومن البعيد ترى أشباحَهم، تترنّح
وسط القناني الفارغةِ
لبلاهةِ النهار.

تعرفهم واحداً.. واحداً
كلعنة لا شفاءَ منها،
كأمجادٍ لا اسمَ لها.

لقد جاءوا من البيت المجاور لأحلامك،
باحثينَ عن صدرٍ أكثر رأفةً من المعرفة
وفي الظلال الكبيرة لفجرٍ مدلهم،
يَغيبُ الجميعُ
عدا ضحكةً واحدة.

❖

بداية صباحٍ ما

ضوءٌ يتكسّرُ على ظهرِ الحانات
ضوءٌ قادمٌ من حيزومِ سفينةٍ تَغْرق،
وأخرى نائمة في الأُفقْ..
يمشي خَجلاً نَشيطاً بَعضَ الشيءِ
يَقْتفي صراخَ الباعة والشحّاذينِ
والسكارَى.

في الأَسِرَّة الأشدّ ريبةً
من أعمارَنَا،
يتسللُ الضوءُ، حارسُ المدينةِ
ويَغْمرُ المَمرات بالنُجوم
يتْركُ قُبلَتَه اليتيمة في الكأْسِ
الأوّلِ
من هذا الصَباح
ويُسافرِ.

بورتريه لـ «سُرور»[1]

لن يعودَ اليومَ حطّابوكِ ورعيانُكِ
من الجبال،
ولن يعودَ الغجرُ حاملينَ فوانيسَهم
على امتداد الهضاب،
وكذلك صائدُ الوعولِ وعرّاف المياه
لن يعودوا إلى بيوتهم هذا المساء،
فالسيولُ الكاسرةُ سدّت
منافذَك الوحيدةَ
والبروقُ، بحيواناتها الجائعةِ تقصفُ الطرقات.

لكن وخلف التلال القريبة، ألمح الفؤوس
تلمع في ليلكِ الكثيف

(١) قرية بعُمان

وأشتمُّ بخورَ السَّحَرة.
هل أبحث عن نيرانٍ أخرى لحكمة الأجداد،
وأرحل إلى أسواق بيع «المغُيَّبين»
أم أرجع إلى مسجد الوادي
أحضر قربان الجمعة؟

❖

قهوة الصباح

في الصَّبَاحِ المبكّر
والنومُ مازالَ أفقاً مكتنزاً بالمرايا،
تمشي خُطوتَيْن، مُتعثراً بأحْلامِك..
أحلامٌ أنيقة عن مذابح
عَنْ نساءٍ بعيدات.

السرِيُر، وحيد ومأهول بالريح
(من أيِّ نجدٍ أتيت
هذا الصباح، أيتها الريح؟)
خُطوةٌ ثالثة تَصلكَ بالمرَيخ
بعدَ أن تكونَ قَدْ أفرغتَ النافذةَ
منَ البكاء.

تَجلسُ أمامَ المَوقد بكفٍّ أصفر
الحيطان تبلع ريقَها الجافَ،

الشمسُ تتسللَ بين الشقوقِ
ذئبةً وديعةً
والركوةُ تغلي، مثلَ مدينةٍ يتشردَ
سكانُها في رأسِك

❖

متسكع لا يحلم بشيء

وكالموجة التي تنشبُ أظافرَها
في جسدِ الإعصار،
دخلتُ تيه هذا العالم
قاذفاً بذخيرة الأجداد في قعرِ جهنّم
شاحذاً أعضائي بشفرةٍ صُنعتْ
من غياب.

وكطفل يلعب دائماً بخسارة،
لم أنتظر شيئا كثيرا من أشباهي
لم أنتظر أي شيء
عدا ضَجيجِ النوافذ والأبوابِ
تنفتحُ وتنغلقُ جانبَ رأسي
ببراءة العواصفِ الراحلةِ من
غيرِ اتّجاه.

لكني موجودٌ وغير موجود
أعرف أني مكللٌ بالفراغِ،
سيرةٌ لا تنقصها التفاصيلُ
المضاءةُ بفوانيس السحَرة،
وعليك أن تحفر في قلبها
بمحراثٍ كيْ تسكبَ
دمعةً واحدةً
أو تحصلَ على اعتراف.

عليك أن تتبع قَمرَ الرحيلِ الممتدّ
من الماءِ إلى اليابسة، ومن اليابسةَ
إلى القبْرِ،
كي تلمحَ شبحاً في كهف.

جنيٌّ يرتجف خوفاً من الله،
وينام على فخذِ
الشيطان.
لكني موجود.. ربُما
أنا الآن في مقهى
أرقبُ العالم من وراءِ الزجاج،
صُفرةُ المغيب،
بقايا صداعٍ من رحلةِ الأمسِ،

سأطفئه برحلة اليومِ
ولا أَلوي عليَ شيء
لتقذفَ الأنهارُ نفاياتِ مُدُنها
في البحر
ويصق المتشردون على أَضرحة القدّيسين
والجنود يحلُقونَ رؤوس ثكناتهم،
وليحلق النسرُ عالياً أو منخفضاً
هكذا... فقط.

من غير ضرورة أن نَتحدّثَ
عن صلة المصبِّ بالنبع
أو عن القَرية الهاذية تحت
ضلعِ الطوفان،
والأماسي الجميلة لشُعَرَاء
يحلمون بالانتحارَ عبرَ قاربِ
يغرب ببطءٍ في سديمِ
المياه
أو عبرَ بلطةٍ تنزلُ فجأةً وبدونَ
رحمة.

عليك أن تبيع أمتعةَ بيتك
لتحصل على قهوة الصباح.

(أي بيت كان عندك؟)
عدا حذاء ممزّقا يفركش ليل
المدُن
وأسمالاً وَرِثتَها من صديقك الميتَ
تَذْكُرْ (وهلِ يمكنك أن تنسى؟)
كيف كنتَ ملاحَقاً بفزّاعة الفقرِ والفريسيّيِن
وبنات آوى
في القاهرة ودمشق، في بيروت
والجزائر وصوفيا وباريس.. الخ

تَذْكُر كل شيء بسطوع الولادة
بوضوح السرطان المتجوّل بين
الأنهارِ كسائحِ مأخوذٍ بمضاربِ
البدو.

أيُتها الأمُ النائمةُ على الأسمنتِ
العاري
بين رُكام الخيش والملابسِ المبعثرة
كشواهد قَرية
سحلَتْها الصواعقْ.
لم يعد ثمة حقلٌ لنظراتك الملأى
بالتوقعّات

لم نعُدْ نضغي لصياحِ الدّيكة
أو نجلب السمكَ من الساحلَ
لم يعد ثمةَ فجرٌ تلعبينَ بريشهِ
على حافة البئرِ
البئرِ الذي ودّعتني منه لأوّل
مرة منذ سبعة عشر عاما
(لا تغبْ عنا كثيراً)
خطوة واحدة فَجرّتْ فلَكَ
الأميال،
واسترسلتْ في هذيانِ المجرّات.

❖

وصول

عندما أسافرُ إلى بلدٍ
تسبقني إليه الإِشاعاتُ
فأنتشي،
مثل ذئبٍ تسبقه أحلامُه نحو الفريسةِ
ولا أصل!



خطوات

أمشي أحسّ أن تحتَ قدمي
سماءً تضطرب بكامل ضحاياها
وفوق رأسي أرضاً توقفت عن
الدوران.

أسمع رعدَ خطواتٍ ورائي
خطواتُ أشخاصٍ قادمين
من الماضي
صامتين كأنما على رؤوسهم
الطيرُ
أيها الماضي تراجع قليلاً
كي نكملَ نزهةَ اليوم.

❖

حب

إلى شمس

وجهكِ المليءُ بالنعاسِ والضَّجرِ
من هذا العالم،
وجهكِ الذي يشبهُ توتّرَ طائرٍ
مأخوذٍ فوق بحيرةٍ، أطلّ منها
على هاويةِ حبي، فَأَرَى
في عمقِ الغابةِ عينيكِ تضيئان
سنِيَّ حياتي
فأبكي.

❖

صباح مخطوف منذ البداية

أيها الأصدقاءُ الموزَّعون
في الجهات الخمس،
في هذا اليومِ،
عليَّ أن أفرغَ رأسي
من شَمسكم اللاهبة،
أن أوقفَ هذا الهجومَ البربريَّ
على حديقتي
لكن أية فائدة؟
صباحٌ مخطوفٌ منذ البداية
عمرٌ مصادَر،
أصواتكم تحرق خرائبَ المدن،
بعبث الدوار اليوميّ
وتحرث أرخبيلَ السنين
عليَّ أن أبدأ
أبدأ ماذا؟

بستان «ديستويفسكي»

مع غيمةٍ شاحبةٍ يدخل «رَاسْكُلْنْكُوفْ»
غارَهُ مدَجّجاً بالعواصف.

بستانٌ تنغل فيه الظلمةُ،
حيث السكّينُ تأخذ طريقَها
بنعومةٍ إلى الأحشاء.

رسالة وحيدةٌ، ربَّما مَاتَ
صاحبها قبل يوم.
وسجّاد تعبث فيه الحشرات

يستجلي نجمةَ السلالاتِ
في كفَّ عاهرة،
ويصغي إلى بكاءِ الروح تحت الأحذية.

هكذا.. أبداً طفولةٌ تخنق أنفاسَها
بضربة معول،
والغرفَةُ صحراءُ المتعبّد.

❖

عودة

أعود أخيراً
بعد أن قايضتُ كلَّ دموعي في الطرقاتِ
ثمنَ رغيفٍ أو ذكرى
وبعد أن طفتُ المدنَ السبعَ
موزِّعاً رسائلَ غرامٍ ساذجةً
وأيقوناتٍ سرقتها من الكنائسِ
لأعطيها للعميان
على كتفي كانَ وقْرٌ من قصَصِ الجنِّ
وصحراء باهرة، عواؤها يُسْرِج
القارات بنشيجٍ لا ينقطع وجبالٍ
تفتش فيها البومةُ عن ضالتها
على ضوءِ السرجان الموقدة
بدم الرعاة (أَتذكّر
في طفولةٍ ما.. كيف ضعتُ

في شعابها وكيف ناورتُ الثعالبَ
ونصبتُ شباكي في غَسَقِ
الفجر لأصطاد القطا

أخيراً أعود
بعد أن قايضتُ كلَّ دموعي
في الطرقات،
ثمن رغيف أو ذكري
ينْزُغ خوفي القديم
من هبوب الخطوة الأولى
من جلال الأمومة وبطشِ الأبوة،
مُلاحَقاً بحشود الأقدام
والوجوه والمصائر
منذ عادٍ وحتى شفق الذّرة.

سأحملها بمراياها الألف
مع أرصفتها وخياناتها وروعتها
حتى يَسقطَ نيزكٌ على رأسي
سأحمل الأرض وَمَنْ عليها
كليلة حبٍ تَهْربُ من كفي
وأعيشَ صباحَ يومٍ آخر.

بيتنا القديم

بما يُشبه خطوةَ العابرِ
في وديان مؤثثة بالمخاوف
وديانٍ لا أستطيعُ لمسَها
أو تذكرّها بسهولةٍ
بما يشبه تلكَ الخطوة الأُولى
أَدخل بَيتَنا القديمَ، بيتَنا المأهولَ
بخيولٍ ضامرةٍ يتجوّل بين صهيلها
شبحُ الأَجداد.

ينفتحِ المزلاجُ على هذا الفراغِ المهجور
رائحةُ أسماكٍ مشوية
رائحةُ جارٍ منكفئٍ فوق المدفئةِ
الفقيرة
الجرارِ ما تزالُ بمكانها تستنطقُ الزوايا
والمياه تغلي في المواقد

القطيعُ عادَ من السَّرْحِ عدا النعجةَ
التي أكلها الذئبُ
السروجُ والبنادقُ معلقةٌ على الجدرانِ
وكأنها في مأتم
غداً عيد الأضحى
والأطفالُ نسوا شراءَ الجوارب
أو غسلَ أرجلهم قبلَ النوم.

غيومٌ بيضاء تُزنّر سماءَ القرية
وتصحبُ المسافرين إلى قراهم البعيدة
ونحن نسبح في مطر المهرجان، حيث
الطيور برفقٍ، تنقر الهواءَ ليستيقظَ
معنا على السطوح.

وحيث كُنا نجففُ التمورَ والأحلامَ
على الشرفات الطينية
ونسقط بين قوائم ثورٍ هائج
وهناك بقعٌ لشمسٍ نحيلةٍ
تحتل المنزل بعصافيره ونسائه
وأشجاره الغابرة وتتخبط مثلَ
رعاةٍ بين الأنقاض

وخلفَ السياجِ الخارجيَ
ترى النخلَ، أرواحاً هائمةً ترتطم بالمآذن
سفناً ترخي قلوعَها
في بحارٍ سديميّة
بين نعاسها وأحلامها الخضراء
يُضْمِرُ المَساءُ سهرته القادمة.

❖

جَمَّال

كلما أطلقَ جَمَّالٌ حداءَه في نِزْوى
أو سعلَ حقلٌ في دمياط
يَرْتَجُّ لهما قلبُ المسافرِ في طنجة.
أين أنت يا نجمةَ أعضائي الواهنة
غوايتي الأخيرة
في هذه الدجنَّةِ الباكية.

❖

بيروت زمان

إلى حمزة عبود

يذوبُ المشهدُ في رأسكِ
كما يذوب السُكَّر
بين شفاهِ
عذراءَ
خلَّقها الطوفان



مازوشيَّة

تخلطين الصباحاتِ مع بعضها
وتؤجلين النزهاتَ
ربما لغدٍ لا يأتي
أنت القادمة من جهةٍ مشطورةٍ
بالغضَبْ
تخلعينَ خرابك فوقَ رأسي
وأَجد ذلك عَذْباً
تَجزّينَ عُشبةَ الرّاعي وتطعمينها
لثعالب الريح
كلماتك التي تطارد فجراً في سهوبٍ
بعيدةٍ، فَي سهوبٍ مليئةٍ بنعاسِ
الذئاب.

أنا الشديدُ الإيمان بما تقولين
الشديدُ الكُفر بما يَقوله غيركِ

أنا الأكثر عنادا من نابليون.

تسافرين إلى بلدان لم تصلْها أَوهامُ الطير
وتتركينني أفترسُ أرصفةَ العالم
بحثاً عن إشراقةِ لمسة.

❖

اختلاط الجهات

يُغْلِقُ عينيه ويتذكر:
«كَم أنت نقية وجميلة
لأنك لم تَعودي موجودةً، غبار الموت
عرّاكَ حتى من الروح»
ينزل السُّلم أكثر، تحرقه نسمةٌ قادمة
من دمشق، يجلس على طاولة عشاءٍ
ربما بمدريد، مئات المدعوّين يسألونَ
عن أخباره، وعن طبيعةِ الطقس هناك.

بحارة يلعبون النّرد في شواطيءِ زنجبار
ومن البعيد يرى شعوباً تتقاطر
عبر الصحراء، بحثاً عن رغيف
ويرى أُمَّه ممدّدةً على سريرٍ أبيض.
طحالبُ سوداءُ وما يشبه نباحَ كلاب
يغلقُ عينْيه

لا يتذكر شيئاً.

الكأسُ مازال في يده،
ويتلاشى في مهبّ الجهات.

❖

سيجارة بحّارٍ مسنّ

إلى بحار مجهول في العذَيْبة

يجلسُ على المصطَبة
أمامَ بيته المصنوعِ من سعِف النخيلِ
وعظامِ الأسماك
يُحدّق في جروفٍ بعيدة (بخياله لا بعينه)
في يدهِ سيجارةٌ واستكانة شاي.

وخلفَ كلّ نفَس أو رشفةٍ
يَسحبُ أرخبيلاً جامحاً من الجزر
وراء كل جزيرة
سربٌ لا يفنى من الذكريات.

وراءَ كل نفَس
ساحلٌ مهجور تنعق فيه الغربان

صورةُ (ابن ماجد)[1].
روح صديقٍ ترفرف فوق الصّاري
وراء كل نَفَس
رَفٌّ دلافين
يحسبُه سواحل

وراء كل نَفَس
قمرٌ منطفئ، لكن رغمِ ذلك ظلّ
يضيء أشلاءَ المقذوفين
من البواخرِ وأساطيلِ الحرب.

وراء كل نَفَس
يشكُّ الموجَ بسنّارة أيامه
إذ تبرز يدٌ من شرفةِ مليئةٍ
بالضباب، تلوّح بالوداع.

تنتهي السيجارةُ
وما تزال في يده قطعةُ
نقدٍ نسيها ذاتَ مَرةٍ
بحار من المكسيك

---

(١) البحّار العُماني الشهير بأحمد بن ماجد

الصرخة

الصرخةُ الغائرة في أحشائي
كحيوانٍ مطمورٍ في كهف، تتجوّل
بين النائمين مع جندها الغرباء،
وتجبرهم على المضيِّ معها نحو
أقاصٍ مجهولةٍ،
هذه الصرخة القادمة منَ عهودِ
الفياضانات الكبرى، دليل أسفاري
الوحيد
إمرأتي المدللة، أحياناً
أراها تخاتل الضباع في سريري
وتنام وديعةً بين ذراعيَّ الهادئتين
بفعل المخدّر.

وأحياناً تسقط فوق الذرى البعيدة

مُنتحبةً، مثل أرملةِ العصور.

لكن في هذه الليلةِ التي هجرتْني فيها
أرى في الطرَف الأقصى من الغابة
نمرةً جريحةً ترمقني بإعجاب.

❖

مبارك الرحبي

أحاولُ أن أكتبَ عنكَ
لكنّ الدموعَ تسبقني إلى
نهايات الكلام
فأرتدّ مرتطماً بهديرِ كوكبٍ يهذي
بحنين أوديةٍ جافة.

أحاول أن أكتبَ لكنّ الدموعَ تسبقني
حاملةً معها الجذورَ والمنافي
ولهاثِ الطرقات.

أحاول أن أمتَطي عربةً من أنينِ
الغرقى
كي أتبيّن شبحَكَ البعيد.
كيف اخترقتكَ الأحلامُ
بغدرِ المسافة

ورحلتَ باكراً
كملاكٍ بعينينِ جريحتينِ
كيف تركَتنا علَى هذا النحو
جثةً تحدّق فيها نسورٌ هرمةٌ
تحتَ شمسٍ خاوية؟

❖

خريف

وحيداً بينَ طيورِ الغابةِ
تبعثرُ ريشَ الخريف
وتحدّق في بركٍ آسنةٍ
ترى فيها صورتكَ قبلَ
عشرة قرون جندياً على
نهرِ الأمازونَ أوْ
في معبدِ بوذيَ بآسيا
جائعاً
لكنك تفكر:
أن مُديةَ واحدةً لا تكفي
لذبحِ عصفور.

❖

مختارات من

«منازل الخطوة الأولى»

القاهرة ١٩٩٣

نجمة البدو الرُّحّل: أو القاهرة

نحن الذين وجُدنا فيكِ
صغاراً
وكبرنا بعيداً عن رعاية الأبدية
نحن الذين تسلقنا حواريكِ باحثين
بين مقابركِ الألف، عن فجرٍ هرب
من بين أصابعنا خلسةً واختفى.

الفضاءُ مسبحةُ الطرقات
والليلُ حاجبُ مياهك المضاءة بالكلام
يموت الكونُ، برفيفه الغاضب
ويولد في ضحكة
تنتشرين بحزن كما لو أن الحِرفيين وبائعي الخضار
والفواكه أسرجوا أيامَهم بالدمع.
يطوف الهواء على الشرفات
حيث كنا نقرأ الكتبَ ولا نذهب

إلى المدرسة
لأن الشتاء فاجأنا هذا العام بضبابٍ كثيف.

وما بين (الدقي) ومقهى (ريش)
يرتجف قلبُ العاشقِ المأخوذ
على مدار الصدمة
تجلسين على الرصيف، تكتبين أيامَكِ الملأى بالتوقعات.

أي ذكرى لمقاهيك وحلوانك
لمحطات قطاراتك الأليفة بنحيبها الذي
لا ينقطع
أي عاصفة ستخلعُ أبوابَ العالم هذه الليلة؟
يسحبُ المسافرُ ظله، مجرةَ تيهٍ وألم
لكنك الصدر الأكثر رأفةً من المعرفة.

إيزيس... إيزيس
بلمسة غريبة تصنعين العصور
وبين قدميك يركع الملاك
أحلامُكِ التي تسافر في خضّم الأعاصير
الأعاصيرَ وقد نامت وديعةً بين يديكِ، خاتمَ زواج

إيزيس..إيزيس

يا غنيمةَ الماضي
غيرةً، أحرق الإلهُ غيومَ الجنس
علَى بابك
رعودك وقد احتلتني
طيورك الكاسرة وقد أطبقت على فريستها
في الربع الخالي
مياه ينابيعَ في غور خلجانكِ البعيدة
أغرقيني أيتها الزائغةُ
بالرغبة.

العبدُ الآبقُ لا يستحقُّ الشتيمةَ
عبدُ رغباتك
تجمعين شملَ القارات بلمستكِ الغريبة.
إيزيس... سوزان..
أرى أيادِيَ آثمة تمتدُّ إليك..
أياديَ منقوعةً في السم
وأنت لا إثمَ لكِ غيرُ الخطيئةِ
المشرقَة في ليل
ليل جسَدك الذي يشبه
غابةً في جبال الهملايا.

يا غنيمةَ الماضي ونجمةَ البدو الرُّحل

الصوتُ المخنوق بزئير المسافة
لا يستطيع المديح
ربما التذكر قليلاً
مثل نيزكٍ يسقط في قاع الجمجمة
أمشاطُك الكثيرةُ مازالت على الطاولة
فرشاةُ الأسنان المشتركة
أقلامُ الرصاص
أمراضِ اللوزتين
أقراصِ منع الحمل
السريرُ الذي أصبح عتيقاً
مازالت تنام النوارسُ الكسولة
ممدّدةً أعناقَها نحو الشرفة
حيث كنا نطلّ على شعوب سحيقةٍ
تطالبنا بالثأر.

الشّقةُ مازالت بفوضاها
بستائرها المذعورة تحت هجمات الريح
بسعال زُوّارها الليليين
وفي الظلمة الحادة مثل بريق شفرةٍ
تشتبك أنفاسُنا
وحيدينَ كأنما في أقصى جرفٍ
من الكوكب الأرضي

ومن جسدينا يتشظى الأنينُ، بروقاً صغيرة
في مدار الغيمِ الموشكِ
على المطر.

كان ذلك العامُ عامَ الجراد
وكان بنو هلال يزحفون
على ثغور النهر
متمنطقين بزنّارٍ من الحكايات
والنساءَ يسطعن تحت ضوء السيف
في وداع الفرسان
وكان الدمُ الفينيقيُّ والآراميُّ
والدم المزونيُّ يشخب في شرايينك
جبِلَةَ أعراقٍ ومجازر.

في التلال القريبة ينشب المساءُ أظافرهَ
على الشجيرات الوحيدة.

كنت ترقبينَ الغروب
بحراً من الغرقى
مظلّةَ أوهامٍ نحيلة
المساء، مساء منتصف الطريق،
ومن عُمانَ حتى السند وزنجبار

كان البحَارةُ يستلون المدنَ والذكرى
البحارةُ بقاماتهم التي لوّحتها
شمسُ آب
نخيلٍ مسافر
أمجادٌ بمسمياتٍ كثيرة
وأمجادٌ لا اسم لهَا
البحَارةُ بأغانيهم التي تجرف الليلَ والنجوم
محدّقينَ في أمواج الصواعق
بناتُ نعش طفولتنا الهاربة
خلف الأسوار.

أخيرا تصلين إلى بيروت
قوسُ قُزَح العالم
ينطفئ في عينيكِ
يا بيروت
لن نكتب لك المراثي والمدائح
ولن نصليٍ لأجلك
كما يفعلُ الرهبانُ والشعراء
سنقتلك بمُدية المحبة
وننثر الشائعاتِ على جسدكِ
وقد تضرّج بدمَ الفينيق
سنقتلك بنفس البساطة التي

نعرفك فيها ببساطة ليل جياعك الأصمّ
وبعد ذلك أو قبْلَة بقَليل
صرت تذرعين البسيطةَ
بحثاً عَن عقدك الضائع
عن وليمة الليل الجاثم في الصدر
من القاهرة حتى الجزائر
حتى اسكوتلندا ودمشق و...
فضاءات تلد أخرى
مثلث برمودا منتحرا بأسراره
أصقاع.. أصقاع
وكنت السلالة الوارفة على متشرّد
وكنتَ ذهبَ المحيط
فيحاء.. إيزيس... سوزان
الصوت المخنوق بزئير المسافة
لا يمكنه الصراخ
ربما التذكر قليلاً
كأنما بالأمس.. بالأمس فقط
مرت أسرابُ المذنّبات.

❖

بنسيون في طنجة

حيث تستعين الذاكرةُ بنقيضها
وبغايا آخر الليل..
نثار ذكرياتٍ، عن الورد..
والأصولِ البعيدةِ والمدرسة.

أمامكَ جبل طارق..
وخلفك هينبعل الجاثمُ على صدر روما..
وبينهما محمد شكري بفيالقه السفليه..
وكبريته الذي يريد أن يحرق به العالم
في أول الليل، أما آخره فيحلم بحظيرةِ
أبقار..
وشيخوخةٍ هانئة.

ومن طنجة:
نرى بوضوح، ومن غير منظار أو حيلة هندسيّة

نرى اللاذقية ووهران والإسكندرية
حبلُ السرة يتلألأ بمدنه
مثل مناراتٍ خلفها الطوفان.

❖

بنسيون في حارة القصبة بالجزائر

نَزْلُ «فاتن حمامة» الذي يملكه عباس القادم من الحديدّة اليمنيّة، كان عاملاً ثم جنديًا في الجيش الفرنسي، حتى مالت الأيام لميزان جبهة التحرير الجزائرية ومال معها عباس.

بحس الوعلِ المطارد بجفاف أراضيه في أرض الأجداد، عرف ما ستؤول إليه الريح فامتلك النَزْلَ الذي نحن فيه.

وثمة مطارَدون في الآراء والعمر السريع من العراق وتونس و.. الخ يَقبَلُهم عباس المتزوجُ من سمينات أربع، شرط أن يقوموا بالتنظيف مقابلَ الأجر.
القصبة التي ترجّها رياحُ الثورات
الشبابُ العاطلُ بأناقةِ أمام البيوت.

عيونٌ تلمع في الظلمة

كانت فيما مضى أشباحَ بحارَةٍ يقيسون العالم بالصرخة والسكين..
وكنتَ أنتِ القادمةَ من جنوب الضلع العربي
بشعركَ الذي كان طويلاً وعينيك الأكثر اتساعاً من التيه
نزلا آخر لمتسكعٍ لا يحلم بشيء.



مقهى في دمشق

إلى حلمي سالم

ريحٌ تنثرُ أمامَهُ نشار الصنوبر المحروق
وتعيدُ ترتيبَ الذاكرة
لا يمكن وصفه في وضح النهار الذي نحن فيه،
يلزمنا شموعٌ كثيرة تعمل في الظلمة
كي تعود الريحُ المتقطعة أدراجها بعد الكأس الخامسة
وتصعقَ الكراسي والعابرين في الردهةِ الخشبيّةِ
المضاءة بنور خافت
حتى النافورة الدمشقية الباسقة في وسطه
والتي تتدلى منها حيواناتُ سماءٍ بعيدة.

بعد قليلٍ يدخل يوسف اليوسف بقامته الفارعة
يلعنُ العالمَ والأبديةَ التي لم يوفرها هذه المرة
يدخل نزيه أبو عفش، حاملُ المسامير والصلبان،
يتقدمه ذئب أرقه الدائم،

يدخل الجرادي والقادمون من وراء النهرين
يقذفون قبعاتٍ وهميّة في الفراغ.

يدخل حلمي سالم وقد خسر حبّاً أيامِ الجامعة
وعوّضوه بسجن يومين على الحدود.

❖

صديق منتحر

ليس ثمّةَ ما يدعوه للتحديق في هيكل مقدّس
أو زيارة مقبرة
ليس لديه وقتٌ للتعليق على أواني المطبخ
والفواكه الفاسده
بالأمس، نسي الحقائبَ والجوازَ في غرفة الفندق
ونسي أيامَه في جيبِ صديقٍ ميت
ونسي أيضا أن يصل أبعدَ من تصوّر الريح.

أقرباؤه كثيرون، وهو لا يرى غير أرواحِ عربات
وحوذيين يجرون الأفق
هل أبقى شيئا للعدَم أو لسلاسل الجبال بعد أن تحطّم عِقْدُها
من جهة الشرق؟
حتى الحياة تركها للخدم السعيدينَ

الميرلاند

أمام الحديقة الكبيرة
التي كانت مركضا لأفراس الملك
ومخدع صقوره وبغاياه
حديقة الميرلاند
بأعشابها الخريفية
والقمر الذي غاب أخيراً
مع غياب عشّاقها الليليين
كانت أرواحُنا غسقَ الأشجار
وكنا نرهف السمعَ لارتجاف العصافير فوق جبل المقطّم
الفمَانِ فمٌ واحدٌ يتكسّر في قُبلة.

في ذلك الزمان
كان لنا منزلٌ
وكنا نحن فيه.

ليلة الحُمَّى

إلى المتنبي

ربيبةُ الغابات، مقصوفةُ الرَقبة..
تحتلُ كاملَ بهائها..
وتسري في ليلٍ، مذاقه قيامة
تتسلق الأعالي..
تسهر مع البدو في الحانات.
حشرةُ العاصفة تلملم شظايا شهاب ضاع
في سمائه
تجثم من الأبواب والنوافذ:
عينان غائرتان في الظلام
نساءُ موغلاتٌ في الربع الخالي
شراشفُ بيضاء في مقْدم خريف
جسد مدبوغ بالأرق..
أبار زيت تشتعل..
النافذة (أية نافذة؟)

وتستبسلُ في أعضائه..
كما تستبسل الريحُ في خلْعِ مفاصل بيتٍ مهجور.

❖

الرسالة

مع كلِّ رسالةٍ أفتحها (غالبا في الصباح)
يساورني الشك أنني راحلٌ إلى بلدةٍ..
سيجرفها الفيضان لحظةَ وصولي..

مع أولِ نظرةٍ أقذفها على السطور..
كما تُقذَفُ الجثةُ في أخدودٍ عميق..
أسمعِ خفقانَ الغائبين..
نحيبهمَ المقطوعَ بضحكٍ متكّسر..

أسمعُ..
وأرى أيضاً، الغشيانَ الأولَ للإشراقة
بتلك الساحات التي أضحت
عصيّةً على الدمع..
ومن بين الأسطر وفي حومتها
يتدفقُ الصراخُ..

يلجمُ الأفقَ والنوافذَ
أهربُ.. أقطع خيّةَ الوجوه الضاجّة في رأسي
وأهربُ.
نحو أراضٍ تنهار باستمرار.

❖

ليلة البَرْق

يلفحُ البْرق أيامَنا
كما يلفح الغرفةً هذه الليلة
على مقربةٍ من البحر
هذا الخضّم الجارفُ للضوء
تنانير اقتطُعتْ من جسد الصاعقة
ومناديل حيكَت بعناية
أطيافْ سمكٍ يهيم،
في هذه الأثناء المضاءة بالشكيمة
يهجرُ النومُ العيون
ويتهيأ المسرحُ كاملاً للوليمة.

❖

غفوة

يستفيقونَ من غفوتهم
بكسوفِ قمر...
أو نداءِ غَريق..
يرضَونَ «المواقعَ» في ليلهم المسنود..
بمكرِ الثعالب.

❖

مفتاح

مفتاحُ الهاويةِ كأسٌ:
تِلْكُمْ حياتُنا التي نسرقها من فم الذئاب.



مختارات من

«رجل من الرُّبْع الخالي»

بيروت ١٩٩٤

أوديةٌ وشِعاب

بينَ ليلة وضُحاها
اكْتَشَفْتُ أنّني مازلتُ أمْشي
أَلْهَثُ على رِجْلَيْنِ غارقَتَيْنِ في النَوم
لا بَريقَ مدينةٍ يلوحُ
ولا سَرابَ استِراحة.

على رِجلَيْن ثاويتَيْن فِي النَوم
أنا الّذي ظَنَّ بأنه وَصلَ
وعندَ أوّلِ مدخلٍ
تنفّسْتُ رائحةَ قهوةٍ ونُباحَ كِلاب
فكَوّمْتُ جَسدي
كَحَشْدٍ من المُتْعبينَ والَجرحى
لكنّي عَرَفْتُ أنَّ الضَوء الشّاحب
يَتَسَلَّلُ من رُسْغي
خيطَ دمٍ يَصلُ الشّعابَ بِوديانها الأُولى.

الليلة الأخيرة

في اللّيلة الأخيرة التي تُشْبِهُ قَلْبا
يَنْفَجِرُ على مُنعطفٍ
في هذه الليلة
أُصْغي بينَ أضْلُعي لزئيرِ الأجْدادِ
ذاهبينَ إلى الحرب
مُقْتَفينَ أثَرَ الكلابِ المُنْدَفعَة كمبْضَعٍ ينْتَهِكُ صَدْرَ الصَحراء
لخُيولِهِمْ تَحْمِلُ جُثَثَ الأعداء عَبْرَ المَفازَة
لِلَمعانِ الأَجِنّةِ والبُطون المبْقورَة
لِجَلَبَةٍ تَحْمِلُ الأُفُق ذَريعةً للحكاية
لأُولئكَ القادمينَ من أغْوارِ السّنين
بحثاً عن مكانٍ بيْنَ أضْلُعي والمسافة...
في هذه الليلة أبْتَكِرُ حَرْباً أُخرى
وأمضْي.

صباح

الفَجْرُ يتَفاقم ظلُّه أمامَ العتَبَة
والطّيورُ تأوي إلى أمْكنَةٍ غَريبة
لقدْ ساقَها الذُّعرُ إلى الثُّكُنات
فلا تَسْمَعُ إلا ارْتطامَ أجنحةٍ بأُخْرى
كمُهاجرينَ فَرّوا من مَذْبَحَة.

كانَ صباحاً مُعْتِماً منذُ البداية.

❖

مطارح

في اَلليل.. في اَلليلِ غالباً
أقْتَفي أَثَرَ البُداة
بكِلابهِم النَابحَة على اَلحافة
ومَواقَدَهم المُرشوَشة بالرِّيبة.

في جوفِ هذا الليلِ الموغلِ
في القدَم
أقْتَفي أَثَرَهُم
لا أَتَبيِّنُ الضَوءَ إلاّ على رُؤوسِ أصابِعي
هُناكَ في الجُرْوفِ البَعيدَة.

مُحدّقاً في الحَشْدِ الهائجِ
بثُغاء أغنامه وتَجاعيد نُسوره
راحلِينَ نحوَ القُرى المُتاخمَةَ لخَطِّ الأُفُق

ساحبينَ وراءَهم تيهَ الجبالِ
وهاوياتٍ لا قَعْرَ لها.

راحلينَ دائماً...
وحدَها ذئابُ الصُّدْفة تَعْرِفُ
مطارحَهُمَ في المرّةِ القَادمة.

❖

ذكرى الحاضر

وحيداً، وخَلْفَ الجبالِ البعيدةِ في الذّكْرى
سادراً أرْقُبُ المَغيبَ
هذاَ الدَّمُ المُنسابُ على أجْنحة طائر
ثُعباناً يَفْتَرِسُ النَّهار بَعينيْه الدّامَعتيْنَ بالسّواد
وخَلْفَ الأَكَمَة يلعبُ النَّمِرُ مع صِغارِه، مُضيئاً
طلائعَ هذا الليَل القادم
بمخالِبَ أكْثَرَ حناناً من جَسَدِ امرأة.

وحيداً منْ غَيْرِ أَمَل
منْ غَيْرِ رَغْبة.

هكذا... هكذا
حَتى أخْتَفي معَ سُكّان مَدينةٍ
غَرقَتْ في البَحر
أو أخْتفي في كَأس.

أصدقاء

جاؤوا من وَحْشَةِ
الطّريق
مُلْتَفّين بمعاطفَ، زِنّارُها
خَريفُ ينَابيع.

يَنْهَبونَ اللّيلَ والأحلامَ
بجِراحِهِمْ
ولا يصَلّون.

❖

أصدقاء

يَحْجُزونَ المقاعدَ في الصبَاح
كي نَشْرَبَ القهوةَ ونُدَخّن
لا يكادُ يَسْطَعُ الكلامُ من أفواهِهِم
إلاّ وتَمْتَلئُ الطّاولاتُ
بالغِياب.

❖

حكايةٌ قديمة

بينَ النَوْمِ واليقْظَة
بينَ الصّحْوِ والمطر
كان يمْضي حمارُ جارِنا القَديم
الذي أتذكّرُه الآنَ تحتَ شجرةِ التّين
عائداً من أسفاره السّعيدة
بين البَنْدَرِ والقرية
كانَ يُمضي القَيْلولَةَ تحتَ الشّجرةِ المُثقْلَة
بالظّهيرةِ والعَصافير
ناعساً وعلى رأسِه تاجٌ من الذباب
لا يَتَذَكّرُ شيئاً
لكنّه يَسْرَحُ أحياناً فيَرْفُسُ الجذْع
برجْلَين مَعْروقَتَيْن بالألم
وفي المساء يَمْضي لجَلْب الزرْعِ من الحُقول
المبعثرةِ كدُموع خضراءَ سَكبتْها الآلِهَة.

فِي الرَّواحِ والمَجيءِ يُرْسِلُ نَنيقَهُ العالي كصُراخٍ أضاعَتْهُ السَّلالةُ بينَ الأحراشِ، فَتَشْرَئِبُّ أعناقُ الحْمَيرِ.

مَرِحاً
مُخْتالاً كطائرِ كَرَكيِّ بينَ إناثه
وفِي اللَّيلِ حينَ يأوي إلى شَجَرته الَّتي
تَلْمَعُ فيها عُيونُ الدِّيكَة حالمةً بمَقْدَمِ
الثَعالب، يَكونُ قد غادَرَ موقعَهُ إلى
ديارٍ بعيدةٍ يَخوضُ فيها سُهوباً وأَوْديةً
بحمْله الثَقيلِ وربَما حلَمَ بأُنثى لم يَطأْها
حمارٌ قبله...

بالأمسِ رأيتُ حِماراً هرِماً تحتَ شَجرةٍ
عتيقة.

❖

ليل

إلى امرئ القيس

ليلٌ لا يُمْكنُكَ أن تَقْطَعهُ بِمنْشار
أو تَعْتقلَه في كأسٍ
ليلٌ تَغْلَبيُّ المزاجِ
أحياناً يُشْبهُ مُهرَجاً في ساحةِ عامةٍ
وينْزَلق أملسَ كفراء العَروس
ليلُ العرّافات وسائقي الشّاحنات
لم يُرْخِ سُدولَهُ بعدُ
لكنّه أوْعزَ إلى مَخْلوقاتهِ بالنّميمة.

الْغرباء يُطلّونَ من شُرفاتهمْ أمامَ البَحر
والسُّفُنُ غارتْ في ذاكرةِ البحّارة.

ليلٌ غيرُ قابلٍ للانْدحار
على شواطئهِ تُلَمْلمُ الصّرْخةُ

أشلاءَها من فَمِ الغَريق
ليلٌ وَعرٌ
وقد أرْخَى سُدولَهُ على عُنُقِ العالَم.

❖

لَعِب

لَمْ نَكُنْ جُبَناءَ ولا أبْطالاً
كنّا أنْفُسَنا
نَلْعَبُ النَّرْدَ مع النّيازك
وأحياناً نُصْغي لنَقيقِ الضِّفْدَعِ
في ليلٍ تُحْتَضَرُ بقاياه.



أرخبيل الغرقى

يَتَغَذّى من حقْد الأعاصير
دمُهُ منْشَفَةُ المَسَافَةَ
والأقدَامُ التي حَشَدَتْ ليْلها
في عينيْه، تَئِنُّ
مثْلَ أرْخبيلٍ من الغَرْقى
مثلَ عاصفةٍ من غيرِ اتّجاه.

أيُّ فأْسٍ فَصلَت السّماء
عن الحقيقة؟



حقيبة

رَجُلٌ يَسْكُنُ في حقَيبة
رِجْلاه مَفارقُ الطُرُقات
فَي كُلِّ مَفْرِقٍ سماءٌ مُكْفَهِرَة.

ذاتَ مرّةٍ رأى نِعاجاً في الأُفُق
فتَذَكّر جَدَّهُ
أَوْقَدَ شَمْعَةً في كَهف
ظلَّ يَطوفُ حولَها
قرناً بعد قرنٍ
حتّى تَصَدَّعَ ظلُّهُ
وفاضتْ أيّامُهُ بالدّمع.

❖

الشرق

بدايةَ كُلِّ يومٍ
وَأنا أقْتَلِعُ خُطُواتيَ الأُولى
نَحْوَ الغابة،
يَنْبَلِجُ الشَرقُ في دَمي
شمساً غريبةً
فأرى خُيولاً تَنْدَفِع
وتُلامِسُ أعرافُها السّماء.



مكيِّف هواء

يَتَنَفَّسُ بصُعوبةٍ
بصُعوبةٍ أكْثَرَ من اللازم
وكأنّما كائنٌ بشريٌّ يَنْتَزعُ من حَلْقِه
عَظْمَةً قَذَفَهَا بُركان
ومن خياشيمه التّكنولوجية،
يَبْصُقُ الهواءَ المُرَّ على جَسدٍ أكْثَرَ مَرارة
من بَلْدَةٍ مهجورة.

وفي تلكَ الغُرفة الصّغيرة
يبدأ الأصدقاءُ في المَجيء
هاربينَ مِن جبَروتِ الظّهيرة.

يَلْطُفُ الهواءُ قليلاً
يَسْرَحُ النّعاسُ قليلاً

ونَغْرَقُ جميعاً في البئرِ الذّي حَفَرَهُ الأجْداد
لَنسْتَقْبِلَ مساءَ آخر.

❖

هنود في ضوء الفجر

هذه اللّحظةُ الملمومَةُ على بعضها
كأجزاء جُثَةٍ أدْرَكَها التَفَسُّخُ
لا ألمحُ طَلْعَةَ الصّباح كالعادة
(لقدْ تأَخَر)
أمامَ النّافذة يَتَدَفّق الهنُود
حاملينَ نَعْشَ بوذا
مُضَمَّخاً بمياه الغانج
منتظرينَ مثلي نَهاراً آخر
لكنْ بُطمأنينةٍ وموتٍ مُقَدّس.

الهنودُ القادمونَ من غير ظِلالٍ ولا وُجوه
غُرباءُ المَكان
أَلَمُ البَحْث عنِ اللُقمة والأُغنية.
بعدَ قليلٍ يَرْتاحونَ من الجَنازَة

فى المطعم المجاور
حيث تتلوى راقصةٌ
تطعمُ نهديها لعشيقٍ خياليَ
ويَحْلَمونَ حتّى النّهاية.

❖

قبر هنري باربوس

إلى عبد اللطيف اللعبي

أُغلِقُ البابَ وأنْظُرُ من ثُقْبٍ
عاصفَةَ
إلى الحَشْدِ البَشَرِيِّ
وأعرفُ، بعد قليلٍ... ستَنْتَقِلُ المَذْبَحَةُ
بتفاصيلِها
إلى قلبي.



الفنان

أبَداً
تُولدُ أعمالُكَ ناقصةَ
ولا تكتملُ إلاّ فَي جُنونِ مَوْجٍ تائهِ
أو في رأسٍ
هَشَّمَتْهُ
الحُروب.

❖

مدن الملح

بعينٍ مُجهَدةٍ بالسُّهاد
ويقينٍ مُلْتَبسٍ حتّى النّهاية
يُحَدّقُ الرّواي في شُخوصِه التّي تَمْلأُ
الغُرفةَ بالضّجيج
ويُحَدّقُ في طَبقاتِ التّاريخ.

في خضَمِّ ممالكه البَهيجة
يَرْتسِمُ الهَوْلُ قَادِماً من جِهاتٍ معلومةَ.

ناحتاً للصّحراء أحوالَها المَريرةَ التَي
تَبْدأُ من تَحْديقَةِ ذئبٍ حتّى
آخرِ المُختَرَعات.

❖

وحين نَقْتَربُ قليلاً من بَخْت السُّلالات،
نَرى القوافلَ والفُرسانَ تَتْبَعُنا
بحَنينِها المَخْنوقِ إلى: وادي العُيون
ونرى الهذّال(★) دمعةً مفتونةً بالأُفق.





(★) الهَذّال: بطلُ رواية عبد الرحمن منيف مُدن الملح

فيض الصحراء

عَجائزُ الطُّرقات
يَسْتَجْدونَ بسمةَ عابرٍ
في وُجوههم مَرايانا
وفي حَدْبَة العُمر
أيّامُهُمْ معلَّقةٌ في ذكرى
كَسَنامٍ يُواجهُ فيضَ الصّحراء
في العرباتِ وعلى المَصاطبِ والممرّات
يَتَجَمّعون
تَتْبَعُهُم بُروقٌ مُخْمَدَةٌ وعُواءٌ مَسْحوق.

❖

طيور هيتشكوك

الأبوابُ تُصرُّ على الحَركَة
مَقابضُها وأطرافُها تَفيضُ في أعماقي
كما لو أنَّ الزَّوابعَ، وجبَّتها اليوميّة، أفسحت
المجالَ للطيورِ التي ستَفْتَرِسُ السَّيدةَ
بقلبٍ باردٍ
وكانَ بينَ هذه الأبوابِ والأشجارِ
في الخارجِ
همهمةُ سماءٍ تُوشِكُ على الانتقام.

الطّيورُ تَسْتَرْخي
عيونُها تَفْتَرُّ عنْ غَضَبٍ يَلْجُمُ الهواءَ عن مسيرتِه.
وبكَسَلٍ حالمٍ، أحياناً، يَجْعَلُ مِنْهُنَّ
شقيقاتِ الغيّبِ.

غرف مهجورة

الحسرَةُ التي نَذْرِفُها على أطفالنا القادمين
تُشبه الغُرَفَ التي أثَّثْناها قبلَ قَليل
ورَحَلْنا
تاركينَ السَّجائرَ فوقَ منضَدَةِ الكُتُب
والرِّيحُ تَعصفُ بالجَنَباتِ، حامِلةً
إرْثَ النَّومِ، ومياهَهُ التي تَغْرَقُ
فيها حيواناتُ ما قبلَ التَّاريخ.



الراحلون

ألّذين يرحَلُون دائماً
تاركيننا لوَحْشَةَ الجدار
لمصيرِ شاهدةٍ على قَبْر.

القَدَم الهاذِيَةُ تَنْزَلقُ في مساءٍ أخير.

❖

الذين كانوا

كنتُم تَمُرَّون على أيّامنا
وتُلامسُونَ الزَّهرَ
ذلك النَّدى في الكلام
وتلك الأغاني
كنتُمْ ذكرى قِيامةٍ للفَرَح
وآفاقاً تستَحضرُ قَتْلاها
كُلّما جُنَّ الليلُ
كنتُمْ ساعدَ الجَسارة الأيمنَ
وطُيورَ الرَّغْبة حين تنحَدرُ صباحاً نحو السَّفحْ
وكنتمُ قبلَ قليلٍ:
«بُناةَ العُزلة».

❖

لن تُقرَعَ الأجراس

لن تَهْدَأَ العاصفَةُ، هذه الليلةَ
أمامَ بابي
جيوشُها الخَمسةُ صفقَتْ بابَ الجهاتِ.

في الضّوءِ الشّاحبِ للكَنَائس
ألمحُ الرُّهبانَ يَجُرّونَ العرباتِ
هاربينَ نَحْوَ الجبال
بخيولٍ مُطَهَّمَةٍ في الرّيح
كأنّما في العَهدِ البيزنطي.

في هذا اللّيل الضّارب في القدَم
لن تُقْرَعَ الأجراسُ بَعْدَ اليوم
لن تَهْدأَ العاصفة.

مطرقة تغور في منجم الذهب

إلى ندى رحمه

لَمْ تكوني كاهنةَ العصور ولا امرأةَ الغيْب
حين التقى ظلاّنا فوقَ جذْع الشَّجَرة
في الغابة التّي يتَصادَمُ فيَها الغُرباء
كُنْت امرأةً بملابسَ خفيفةٍ
أمشي بمُحاذاتك
في الطُرُق الأكثر وُعورةً للصَّمْت
رجلٌ وامرأة نَحتَا ظلَّيْهما في حائط.

ومثْلما تُلَمْلِمُ روحٌ أعضاءها في غبَشِ الفجر
لامَسَ كتفي كتَفكَ
أمام البائعِ المُتَجَوِّل تحتَ شمسه النَّحيلة،
نقتفي أثَرَ الحُواةِ والعابرين
نفْتَرقُ ونَلْتقي
كلَّ يومٍ على هذه الحال

تحتَ القُبّة الهائلة للصَّدْفة،
غريان في غابة
يُلامسُ ظلُّهُما ظلاً ثالثاً
وتدورُ الغابةُ تحتَ شمسِ الحائط
حيثُ الفمان فمٌ واحدٌ
واليدان طيرُ استغاثة:
لم تكنْ ذكرى قبلة صيَف
كانت مطْرقةً تَغورُ في مَنْجَمِ الذَّهَب
مُرتَشِفَةً لُعابَهُ المُتأجِّجَ في الأعماق.

❖

دَوْخة الألم

تَعودُ الدَّوْخَةُ بكاملِ وَعْيها
هذه اللَّيْلَة
جارِفَةً كُلَّ شيءٍ في طَريقها
حتّى ضوْءَ النّافذة الشّحيح
بَبسالةٍ يَحْسُدُها عليْها الأعْداء
تَرْبُطُ رأسَ الضّحيَّة بشاهدَة قبْر
أو عَمودِ سَفينةٍ تَغْرَقُ...

الشَّقيقةُ الْكُبْرى للْخرائب
تأْتي دائماً من جهَةِ الْجبالِ وَحَوافِّها
لتُطوِّحَ بي نَحْوَ سُهوبٍ بعيدَة
حتّى على الذّاكِرة.

❖

ما من بلد قصدنا

ما منْ امْرَأَةٍ أحْبَبْناها
إلاّ وَسَبَقَنا إليْها الأَعداء.

ما منْ بلَدٍ قَصَدْنا
إلاّ وهَدَّ أرْكانَه الْحَريق.

ما منْ جُرحٍ ضَمَّدْناهُ بعُيوننا
إلاّ وانْفَتَحَ على مِصْراعيَه.

ما منْ حلَبَة
ما منْ طفلٍ وَلَدْناهُ تَحْتَ حوافرِ الخيْل
(أيُّ خَيْلَ؟)
ما منْ أُفُقٍ، أو ذاكرةٍ تُفكّكُ أزْرارَها
في بَهْوِه.

ما منْ طُفولةَ ولو كانَتْ بَعيدةً مثْلَ زُحَلَ
ما منْ أسَدٍ، لقدْ غادرَ بعَرينه مع الْفجْر
والْجبالُ غارَتْ مَواقعُها الأَزَليَّة
لا أَسْمعُ نَعيقَ الغُرْبانِ على شَجَرِ الأراك
والعُقبانُ شنقتها القمم
ما من أصداء
ولا من يحزنون.

❖

مختارات من

«جبال»

عَمّان - بيروت ١٩٩٦

هذيانُ الجبالِ والسَّحَرَة (★)

لقد ذهبوا بعيداً صوب أنفسهم
وذهبوا في الوحشة.

أيامٌ تتلوها أيام،
الديارُ تضمحلُّ في عين عاشقِها
والجبالُ عرينِ الذكرى
تفقسُ النسورُ بيوضَها،
الأقربَ إلى ألوان الرمال والصخور
من فرطِ ما ارتطمتْ بالأزليّه.

ليّس بيني وبينَك
أيتها الساحرةُ الولَود
إلاّ هذه الكثبان من الرمل

(★) مقتطعات من نص ءطول

وهذه الأزمنة المكدسةُ أمام بابي،
تقولين كلاماً لا أفهمهُ
وتقولين هذياناً، أفهمه
بسرعةِ سقوطِ النيزك على رأسي.

أيامٌ تتلوها أيام،
ونحن نُحدّقُ في هذا الوثن،
الممدّد على أرض الأنبياء
أسوقُ قطيعَك بعصا الراعي
أمامي تبكي رَغباتُك،
وتنفجرُ كأنها قابَ قوسين أو أدنى
من القيامة.

أنصالٌ تبرقُ في ليلٍ
كأنما لم أكنْ عائداً من أسفارٍ سحيقةٍ
حين ارتميتُ في ظلالك الثكلى.

هدأتْ جوارحي في اتساعِ المكان
كانت الأرضُ الضيّقةُ
وكان نحيبُ الراحلينَ
فهشّمتُ أعضائي بين مدنٍ شتّى
ورأيتُ الزلازلَ تحت قدميَّ

دوخةَ أرضٍ ونشوةَ سماء
غُدْراناً تحتلها عصافير
وملائك ترتطمُ بسقف البسيطة
حتى يخالَها الرائي، طيوراً كسيحة
تَنْقُر فضلاتِ البشر.

البشرُ وقد عادوا إلى بطن أمهاتهم
ملوّثينَ وطاهرين.
هكذا يغدقُ الغيمُ على بنَيه
وقد رحلتُ بعيداً في نزواتكَ
فأدركتْني الظهيرةُ في الربعِ الخالي
فَقُدْتُ بعيري إلى شجرةَ غافٍ
هجرها البدو منذ أزمنةٍ،
أبيدتْ بقوةِ الحضارة.

فيَمّمتُ شطرَ وجهك الأنقى،
مَوْئلِ القسوةِ وتاجِ طفولتها،
ووجدتك
تركضينَ، شجرةَ برارٍ وحشيّة
كانت البيوتُ الطينيةَ
وكانت الأمطارُ

أزمنةَ الجفافِ واللعْنة الأزليّة.

أزمنةٌ تتكدسُ أمام بابي
أزمنةٌ كواسرُ
كأنما لم نكن نحن الذين قُدنا القطيعَ
إلى متاهة الوادي
والضيوفَ إلى الدار المقابلة
وقدنا السيولَ إلى بحارهَا القصوى.

وقد مرّتْ شائعاتُ القرى
أنْ رحلَ القادمون من البلاد المتاخمة
ورحلَ الغجرُ
متبوعين بأقمارٍ ونيازك

جبالٌ تتلوها جبال،
هذه الأبديةُ منِ سرابِ الكائن
أيُّ أسرارٍ تخبئُهَا
أيُّ خلائقَ ستقذفها ذات يوم
في وجه كوكبنا
وقد استحال إلى خردةٍ ورماد؟

جنينُ حياةٍ أخرى

وربما هباء الأجيال وأحلامها
الجبالِ الجبال
مفازاتٌ من السرابِ والظل
تنحدر على سفوحهَا الذئاب وبناتُ آوى
في المساءات الكبيرة للقرى وللغَزَوات
وينحدر علىَ ثغورهاَ صليلُ الحديد.

رحمةً بنا أيتها الجبالُ
بيقين مرابضك وشعابك
لم تكوني سَبباً لشقَائنَا
لكنك من تملكين مفاتيحَ الرحمةِ.
بتوسلاَت السلالة التي
تعاقبتْ تَحت سطوَتك
الممتدة حتى الربُع الخَالي
شعوباَ وقبائل
تجرفهم الرمالُ والفيضاناتُ
ويبقى أثرهُم الوحيدُ على سطحِ الكوكب
المتلاشي في هذيانه



أسمعُ نفيرَ الأقوام
قادماً من فجاجه البعيدة
أسمعُ نحيبَ الصُفْرد تحت الصخرة الكبيرة التي كانت ظلالُهَا
تغطي البلدةَ بكاملهاَ
وكانَ الليلُ على منحدرِ النزول،
حين كان السَّحرةُ ينادونَ الفلاحين،
بالعودة إلى بيوتهم
غيمةٌ بحجم سماء كبيرة
تهطلُ مطراً وأحلاماً
تبلبلُ نوّامَ السطوحِ وقارةَ النخيل.
مروحةُ الجبال
سكينةُ الأفاعي.

أسمعُ الرعاةَ
ينحدرون بأنايدهم نحو الهضبة
محدّقين في الأبدِ الجارفِ للسيول.

❖❖❖

وكما تَكرُّ الفصول عَلى الصحراء
في شكلِ ذئبٍ وحيدِ

وفي شكلِ مئذنةٍ،
تنحدرُ الرمَالُ منَ الأفق الشرقي
المحاذي لبلاد الأحباش
حيث السَّحَرةُ ينادون بعضهَم
بأسماء مستعارة
لا أكادُ ألمحُ جزيرةَ النَّخلِ
قُربَ مهبط العقبان.
لقد فتكتْ بها الرياحُ الهوجاءَ
وسامَها البلي
كديار أحبَة غَربُتْ للتوَ.

أسمعهم ينادونني باسمي المستعار،
أنْ اغربْ عن وجهنا
لستَ منا ولسنا منك.

وقد ناديتهُم قبل ذلك
أمواتاً وأحياء
أن اغربوا عن...
لكنهم ظلوا يحدّقون في جثتي
طوالَ أزمنِة، ويغرزون مخالبهم العمياء.

وقالوا لك نَغْلَ السلالة

وظلوا ينثرون الإشاعات حول قبر جدّك.
آنذاك احتدمتْ حربُ القَبائلِ
من جبلٍ إلى سيبةٍ
تشاهدُ الموت معلّقاً في قرونِ الأكباش، التي تُهرع بثغائها نحو الأبراج.
أتذكر حين ينحدر الرجالُ على الهضبات وفوق التلال،
مختلطين بهدير الجبال ونواحِ بنات آوى
غيمةُ الرصاصِ التي تجلد القريَة
من أعلاها حتى أقاصي الوادي
الذي كان غزيراً ومعتماً
أسلحةُ تُمتطي الجمالَ والبغال
تحتَ شمسِ آب الفائضةِ على الكون، وكانت المخلوقاتُ تحتسي حتَفهَا،
جرعةً.. جرعةً،
من غير مواربة ولا دهاء
حروبٌ واضحةٌ
وقتلى في مجدِ الظهيرة.

ينادونني باسمي
أن اخلعْ وردةَ رأسك،
فأنتَ على أبواب الربع الخالي..
قتلى يملأونَ الصالة

ويشاركونني السريرَ وغرفةَ النوم،
حتى قنينةُ النبيذ
آراهم يتآمرونَ في قعرِها
ويضحكون،
محَدقين في جثتي
بعيونٍ، يبدو من أشكالها، أنهم قدموا
من كل جهات الأرض.

عيونٌ ملؤها الخيبةُ والتذكرُ
وكنت أسمع نداءهم مُنذ الولادة يأتيني عبّرَ قوسِ الأثيرِ لطفولةٍ
جبليّة.
أسمع غناءهم الصاعدَ من الأجداثِ
طيوراً بيضاءَ تخبطُ سقفي.

طيورٌ عاتيةٌ وأليمةٌ:
تلك أرواحُهُم في سَفَرها الليليَ
نحو الأحبة.

❖❖❖

ينادونني باسمي

أن ارحلْ من واحة الجنرالات
فَمثلك ليس نبياً
ولا أوتي رأسَ الحكمة.

ها أنت في البيداء،
ضارباً كبدَ الجمالِ التي فقدْت صحراءَها
غارقةً في الوحَلِ،
الحقائبُ الجاثمةُ كغربان الّبْينِ
في انتظار قافلة لن تأتيَ،
بطاقةُ السفر،
التي رأيتَها البارحةَ في نومك،
وأنتَ تسألُ المسافرَ الأسود،
أيّ الطرقِ تؤدي إلى اليمن؟

الكلماتُ التي تتراقصُ أمامَ عيْنِكَ
مثلِ ديكةَ الجنّ،
وفي نومَك تصرخ:
مات دليلي وتقاطعتْ بي الطرق.
الصحراءُ ماضيةٌ في غيّها
في أي مدينة ستقضي هذه الليلة؟

أبوابُ العالم تخلعها الريح

قبائلُ ترتجفُ مِن الذعر
وأخرى تنحدرُ نحو السفوح،
محدّقةً في الأبد الجارفِ للسيل
لن أنزلَ من جبلَي
فلا عاصِمَ إلا الله.

❖❖❖

تنقلب قليلاً، إذ ترى نفسَكَ في حانةٍ على منحدرٍ مضاءٍ بالعتمة، وثمة عتّالونَ سُكارى، يقصّونَ أطرافَك بمشارطَ صدئةٍ جلبوها مَن مستشفى دمّرتْها الحربُ.
أصدقاؤك يضحكون،
لعبةٌ مسليّة.. أليس كذلك؟

لكن المشهدَ بحاجة إلى ترميم
كأن تطلع أفاعٍ من بيوت الجيران كانوا يربونها كالكلاب، تشخشخ في نومك وتلحس أطرافك المقطوعة.

هنودٌ، يأخذونكَ، عبرَ المحيط ويقذفونك في (جوا)،
مواكبُ سحَرَةٍ وبوذيين وفِيَلَة. نواحها يؤرقُ سكّان الخليج.

لا تستيقظْ هذا الصباح ؛ تأخذُ المظلّةَ لتراقب أهل الكهف
وكلبهم الذي افترسته أفاعي الجيران.
تديرِ زرَّ التلفزيون، تخفضُ صوت المذيع حتى خنقه
وتودُ لَو تستطيع خنقَ العالمِ بالطريقةِ نفسها، أو أي طريقة أخرى.

تنتشر الأبنيةُ المسلحةُ بأسباب القوة والضعف، لدحرِ فيالقِ الشمسِ، ناطحاتُ سحابٍ مضاءَةٌ بأسَماء الذين نزلوا حدَيثاً من الجبال ومازال دمهم يسيل على البطاح، دليلُ السلالة الوحيد على إرثها الذي أُقتلع من عروقه، ومازال الدم يشخبُ ويصرخُ وسط جلَبة أبقار الهند وأسطح المباني المكتظّة بأطباقِ التلفزة وغابةِ العيون المحدّقة في الفراغ.



الفجرُ، زارعُ الفتنة في هذه البقاع، فجُر القتلةِ والعشّاق •
عبرَ أضوائه الأولى، تزفرُ الجبالُ الهواءَ الثقيل
كأنما تلدُ كوناً بكامله... كوناً يَسرح فيه البشر والحيواناتُ والأكاذيب، ويسرحُ فيه السماسرةُ الذين أتوا من كل بلاد العالم لامتصاص ضرع الأرض وما خلّفته عظامُ حيواناتٍ بائدة. يمضي الموكبُ في هذا الصباح الذي انفصل عن فجره الأول وأصبح غريباً وفظاً وحارسَ ثكنات.

كلُّ شيءٍ قابلٌ للبيعِ والشراء، كلُّ شيءٍ قابلٌ للاندثار بسرعة وجوده وبسرعة لغط الألسنة الكثيرة وبكاء الأمهات على ضحايا الطرق التي تصرخُ بنهمٍ، هل من مزيدٍ لهذا النهر من الدماء...؟
هل من مزيدٍ لطبقاتِ الألم وهذا الوحشُ الكاسحُ بمفازاته وناطحاتِ سمائه؟

شموسٌ كثيرةٌ، في كل منعطف شمسٌ متحفّزةٌ كذئبةٍ جائعةٍ..
والخلائقُ تمضي بشماعةِ أملها الواهنِ، وسط لججٍ من اللافتاتِ والحِيل السينمائية.
تمضي نحو القرى الرازحة في وحشتها القصوى تحتَ طوقِ الجبال بأشباحه وغزاته وشهبه التي سقطتَ للتو، بعد سفرٍ طويلٍ لتستقر في هذه القيعان المسترخية في حوض الأزل.

أهلها الذين تغيّرتْ أحلامهم ولياليهم وصاروا غرباءَ يلوذون بجريد النخل أيام الجُمَعِ كأنما لآخر تعويذةٍ تقيهم الاضمحلال.

صخورٌ وأطوادٌ وأطباق فضاء، وأحاديثُ تشبهُ زجاجاً يمضغه متسكعٌ في ليل مدينةٍ منكوبة.
وجوهٌ ذابلةٌ ونحيلةٌ، محاطةٌ بالأيام الخوالي وحروب الثأر؛ صار الموت يأكل من أطباقهم بشهيّة، من فرط المقابر التي نبتت عشوائياً، أو نزلتْ عليهم جاثمةً بطيورها وموتاها وجاثمةً بالحنين.

لن نحاورَ ملوكَ السفحِ. ولن نقتفي أثرَ الرعاة الذين ماتزال ظلالُهم مائلةً في السقف، كأنما نزلوا اللحظة، غاسلين أيديهم في مياه الفجر، مُيمّمين شطرَ القرى المجاورة. أولئك الذين يمخرون عبابَ القفرِ ويتلاشون خلف السحُب الجافة، تاركينَ أصواتهم تقودُ الليلَ الحائر بين أشجارَ السِّدر، حيث كانت فئوسُهُم تحلم بالعودة إلى المنزل والسهرِ مع الساهرينَ، في ضوءِ القمرِ الكبيرِ المزّينِ بهالةٍ مضطربةٍ تشبهُ الجوهرَ المفقودَ للأشياء كلّها،
وللغياب كله.

نغتسلُ بمياه الصباح ونبكي،
نغتسلُ بمياهِ العالمِ وقد شربناها ومازلنا عطشى. وكانت الطرق والمشردون، أسمعهم... يئنون تحت وسادتي، قادمين من الأزمنة البعيدة لمتاه الكائن، وكانت النافذة مفتوحةً على آخر العالم، ملتفّين حولَ بعضنا والبروقُ تحيط بنا منِ جميع الجهات، البروقُ الطائشةُ في هذا المحيط الذي يجلدُه الموجُ ويخور في جروف جباله كقطيعِ أبقارٍ أراقها الذعر فولّت أدبارها نحو الرمالِ الجارفةَ للصحراء.



هذا الضبعُ الذي تلمع عيناهُ في الظلام، صديقُ السَّحَرةِ الذين

ألقوا أخي في غياهب الجبّ، ومازالت أمُّه تنتظرُ رجوعَه حتى اليوم، تعدّ الأيام والشهور والسنين، تتسقط أخبارَه المتضاربةَ من أوفواه الأهالي. بعضهم شاهدوه مربوطاً على شجرة سِمر عارياً ووحيداً. وآخرون شاهدوه يسبح في الوادي، سارحاً في السيوح مع المواشي. أو شُوهِدَ في أميركا تائهاً في الشوارع من غير وجهٍ ولا مأوى

أيام تتلوها أيام
والانتظار ينهشُ جسدَها وعيونَها التي أصبحت بلا ضوء، حفراً مليئةً بالوحشة على الغائب الذي قُذف في خضمٍّ التيه، ربما ثأراً لإخوة قضوا بالطريقة نفسها
وربما لبيعهِ في مدن أخرى
وربما..

أيامٌ تتلوها أيام
لا أثرَ للفقيد
لا أثرَ للأم
لا أثرَ للعائلة..

هذه القصة التي روتْها جدتي ورواها مجنون القرية. أتذكَّرُ اسمه، كان اسمه علي بن ساعد، لم أعدْ الآن أتذكرَّ غيرها، لم أعد أتذكرهم حين كانوا يضرمون النارَ في الخيام، عدا الصارخة التي

كانت تقفز من قلب الحريق نحو العَدَمِ المنتصب كعصا الأعمى، وحين كانوا يبيدون الأيامَ والليالي في صيد القطا والوعول ثم يتعفنون في بطن الحكاياتِ التي يرويها لاحقوهم من العجائز والمجانين.

لم أعدْ أتذكّر شيئاً،
عدا كوني موجوداً في زاويةٍ ما من إبط هذه الميدوزا، أحكُّ رأسي من بقايا القمل في سجن البارحة، أتحدث مع نفسي وأشباحي الكثيرة التي تمرح سعيدةً، وتقفز كالجنادب تحت مطر الربيع الذي لم أذقْ طعمهُ منذ قرون.

المساءُ ينزلُ على المدينة
يعقبهُ الليلُ والنهارُ
أفلاكٌ تقود بعضها كعميانٍ شرسين ومجرات غاضبة على وشك الاقتتال، لاشك ستحصل على إثارة أكبر من حروب كوكبنا التي أصبحت مضجرة:
يقول أحدُ أشباحي، وينطلق كالسهم نحو حانات الدار البيضاء.
ويتمتم آخر: آه، مرَّ زمنٌ لم أذق فيه طعمَ التفاح أو أضاجعُ امرأةً من الخلف في فندق هجره زبائن الصيف وبقيت صاحبته التي تحب النكاح من الخلف.
ويصرخُ ثالثٌ: لم يعد لي مستقرٌ في هذا المكان، سأفجر ثورةً في غاباتِ الأمازون، وإذا لم أفلح سأحرق الهنودَ وأبقارهم وأغانيهم

التي تزهق أعصابي في البيوت المجاورة.

ها أنا ألمحُ الجسرَ الذي مشتْ عليه الملايين قبلي وتبخّرت، ألمحُهُ من البعيد بحدْبته التي تصلَ الغابة بالبحر، بعد أن أزهقَ التعبُ كياني، ألمُحه كمخلصٍ ينتظرني منذ الأزل، حيث أرتمي في الحانة المطلة على بحر الشمال الهائج، أشتمُّ رائحة القراصنة والداعرات اللواتيَ آخذ في مغازلتهن بعد الكأس الخامس وأحكيِ لهن عن بطولاتٍ وهميةٍ وطقوسِ الختان والسحرة الذين يطيرون عبر القارّات، حيث أجدُ نفسي في صباحَ اليوم الثاني على سرير امرأة لا أعرفَ اسمها أو شكلها، فأهرب متسللاً على أطراف أصابعي في الظلمة الحادة، تحدوني رغبةٌ في رؤيةِ الفجرِ وهو ينطلقُ، مرحاً أو كئيباً على جسرِ خلاصي، أن أراهُ يضرب بحوافره الضوئية أرض المدينة ويحملني هكذا بين اليقظة والنوم، مخموراً، إلى مخبأي في الضفةَ الأخرى.



علاقة غاربة

ماذا يعني هذا الصمتُ الذي رانَّ بيننا
ثمةَ رغبةٌ سحيقةٌ في الكلام
رغبةٌ في القُبلة.

هذا الصراطُ الذي يفصلنا
هذه الهياكلُ المحطَّمةُ
هذه السفنُ التي تُبْحِرُ بجلاديها بيننا.

ثمةَ رغبةٌ سحيقةٌ في الكلام
رغبةٌ في القُبلة.

❖

ولادة

على ذُرى المكيّفاتِ الغاضبةِ
تبني الطيورُ أعشاشها
التي تموءُ تحتها القطط
تقفزُ من سلكٍ إلى سلك
مفتونةً بالولادة
وفي المساء تغْمَرُ المكانَ بالصياح
كأنما تتنبأُ بالحشرِ.

❖

غياب

عيونٌ زائغةٌ بالغيابِ
غريبةٌ أينما حلَت
كأيامٍ خارجَ مدارِهَا الفلكي
كجرحٍ ضاقَ ذَرْعاً بالهواء
تدورُ في محجرِها
تحدِّقُ بغضبٍ، تضيءُ، تنطفيءُ، تتوسّل.

عرينُ النمور يأخذ مداه في الغابة.



ترانزيت

من أين جاءتها تلك التأتأة
في الكلام..
كانت على شرفة المطار
تنظر في فراغ مدلهم
في نجوم الظهيرة الساطعة.

كانت قريبةً من نفسها أكثرَ من اللازم
لم تلتفتْ كثيراً لتلوّح بأنامل
أو مَحْرمةٍ
كانت تقفُ هكذا من غير شموخٍ
أو ذُلٍّ
أو ربما من غير تأمل..

لم يبق منها، عدا ظِلّها محفوراً
على الحائط
وعدا رائحةً تنتشر باستمرار
في أرجاء المنزل.



عقاب

ستجتازُ ليلاً شرساً وعقيماً
وتجتازُ المجزرةَ
حتى تصلَ إلى طرفِ السريرِ
وكأنما إلى طرفِ الكونِ
وبعدكَ القيامة.

لن ترى ممراتِ الطفولة
ولن ترى الأعشاشَ والنخيل
ولثغةَ طيورٍ وليدة.

ليلٌ بعد ليلٍ
ونهارٌ يجثم بمنكبيه على الثَّقَلين
وعلى رأسه إكليلُ القسوةِ العتيد.

سفر

في هذه البقاعِ القصيّة
هذه البقاعِ المهجورة حتى من عواء الذئب
أسرج ضوءَ الشمعة
وأسافر.

❖

حنين الأعالي

خلعوا قلوبَهُم وأوتادَهم
قلبوا الخيامَ على الأحصنة
تبادلوا حديثاً غامضاً
ورحلوا.

تركوا خلفَهُم مواقدَ وذكرياتٍ
سلكوا طريقاً غيرَ طريقهم
رأوا شعاباً وأفاعي تسيل من اللهب
رأوا سماءً تنهارُ على ساكنيها
ورعوداً تمزّق جلدَ الأبديّة.
جرفوا الأوديةَ والأشجارَ بأقدامٍ مُتعبةٍ
وحنينُهم دوماً إلى الأعالي
التي لن يصلوها أبداً.

عوارض تكييف

تصحو من النوم
غارقاً في بحيرةٍ من النعاس والوحل
تتلوّى في الفراش،
رأسُك تعجُّ بالموتي
وقدماك ثقيلتان.

تتخيّل أمطاراً في الخارج
وجنائن تتنزه فيها نساءٌ
مظلاّتهن صُنعتْ من القشّ
سعيداتٍ يبتسمن للأفقِ
والبحُر، زبَدُه يصلُ النافذَة...
قدمان ثقيلتان
ورأسٌ تعجُ بالموتى..

موسيقى

حين أخرجُ من البيت
أتركُ الموسيقى مفتوحةً
تحرسُ أرواحَ الموتى
موسيقى القدماءِ التي تحمل رائحةَ العشب
وتحرسُ حدائقَ بابلَ
مُعلقةً في الأعماق
حين أخرجُ من البيت
أتركُ كل شيء مغْلقاً على نفسه
عدا الموسيقى تضطربُ في الردهاتِ الخالية
وعدا بضعَ محّاراتٍ
التقطتُها من الشاطئ
ليلة العاصفة.

❖

أمومة

أُمهاتنا اللواتي خلَّفناهن وراءنا
يجلسن الآن في بهو البيت
بجباهٍ موشومةٍ بالأرقِ
وسواعدَ أنهكتْها الحقولُ
فحولةُ رجالٍ ماتوا.

يجلسن الآن على عتبة رنين غامض
الأحاديثُ، كأنما مرّت عليها أحقابٌ،
لا نكاد نصغي لوقعِ حفيفها العابرِ
إلاَّ ويمتلئ البهو بالغياب.

❖

دعاء

ثقيلٌ أمرُ هذا الليل
بمعاوله ومعادنه التي تغطسُ في القلب،
ثقيلُ أمرُ هذه البلاد
يا إلهي أزحها قليلاً عن كاهلي
عن قرن ثورِكَ الذي تركتَه يحمل الصخرةَ
هائماً في البراري،
لا موتَ يأتيه ولا حياة
يريقُ العذابَ ينزُّ من مقلتيه الحجريتين

أزحْ قليلاً هذه الصخرةَ
هذه الأرضَ
هذه البيضةَ العائمةَ في الأفلاك
والكأسَ الفارغَةَ من خمرها.

أزحها قليلاً
فلسنا الورثة الصالحين
إلهي.

❖

هذه الذُّرى

كل هذه الذُّرى
ولا أحدَ تركلهُ رغبةُ الصعودِ
إلى جبل.

❖

المحتويات

❖ نورسة الجنون ٧
❖ الجبل الأخضر ٣٩
❖ أجراس القطيعة ٥٥
❖ رأس المسافر ٩١
❖ مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور ١٤١
❖ منازل الخطوة الأولى ١٩١
❖ رجل من الربع الخالي ٢٢١
❖ جبال ٢٧٧

❖

نشرت هذه النصوص، التي كُتبت في أزمنة وأمكنةٍ مختلفة، مثلما هي عليه إبّان كتابتها من غير تغير أو إعادة نظر وصياغة ضمن وعي لاحق، إنها تجارب مختلفة لمسارٍ شعري وحياتي واحدٍ. أو هكذا...

إصدارات شرقيات

روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية / خيري شلبي
رائحة البرتقال / محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار الخراط
يقين العطش / إدوار الخراط
أوراق زمردة ايوب / بدر الديب
صخب البحيرة / محمد البساطي
متون الأهرام / جمال الغيطاني
خِلسات الكرى / جمال الغيطاني
العاشق والمعشوق / خيري عبد الجواد
داخل نقطة هوائية / وائل رجب
هاجس موت / عادل عصمت
تفريغ الكائن / خليل النعيمي
اسم آخر للظل / حسني حسن
تصريح بالغياب / منتصر القفاش
أطياف العرش / نبيل سليمان
ورد الأحلام / عبد الحكيم حيدر
مكان اسمه الكميت / نجم والي
الخباء / ميرال الصحاوي
أطلال النهار / يوسف القعيد
أيقونة فلتس / جورج البهجوري

---

* قيد النشر

قصص

السرائر / منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
القمر في اكتمال / نبيل نعوم
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
رجفة اثوابهم البيض / يوسف المحيميد
شرفات قريبة / هناء عطية
صياد في خُص / عبد الحكيم حيدر
عرائس من ورق / أحمد زغلول الشيطي
الرجل الذي عرف تهمته / لطيفة الزيات
خرزة المشي / محمد اليحيائي
مريم عسل الجنوب / عثمان حامد سليمان
خيوط على دوائر / أحمد فاروق ◆ هيثم الورداني
وائل رجب ◆ أحمد غريب ◆ نادين شمس ◆ علاء البربري
نحت متكرر / مي التلمساني
خشب ونحاس / سمية رمضان
ليلة ماري الأخيرة / نجم والي
طلب لجوء / عبد الإله عبد القادر
تهواء / نورة الغامدي
ريش الحمام / محمود تراوري

شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود
فقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب

عيون الأدب الأجنبي

البطء / ميلان كونديرا
البحر والسم / شوساكو إندو
عبدة الصفر / ألان نادو
مدام بوفاري / جوستاف فلوبير
المكان / أني إرنو
الكلمات / جان پول سارتر
الأحمر والأسود / ستندال
الآثار الشعرية الكاملة / إديت سودرجران
جاز / توني موريسون
مختارات من الشعر الأمريكي المعاصر / ترجمة د. حسن حلمي
ويليام بتلر يتس: قصائد مختارة / ترجمة: د. حسن حلمي
اغتيالات للذكرى / ديديه دينانكس
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الأول / مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثاني / مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثالث / مارسيل بروست*
الربيع وفصول أخرى / ج. م. ج. لوكليزيو
ديريارم / ستندال*
أسير عاشق / جان جينيه*
الضفة الأخرى / جوليان جراك*
ذكريات الطفولة / مارسيل بانيول*

دراسات ثقافية عربية

مسرح الشعب / د. علي الراعي
من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي
الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط
يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش
أفق الخطاب النقدي / د. صبري حافظ

الاقباط في وطن متغير / د. غالي شكري
العين والإبرة / عبد الفتاح كيليطو
نقد بلا سلطة / د. غالي شكري*
جماليات التشظي / السيد فاروق
قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر / صلاح صالح

دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب العجائبي / تزفيتن تودوروف
الوضع ما بعد الحداثي / جان -- فرانسوا ليوتار
مجتمع الفرجة / جي ديبور
تاريخ القرصنة البحرية / ياتسيك ماخوفسكي
الاغتراب / ريتشارد شاخت
حدود حرية التعبير / مارينا ستاج
أزمة منتصف العمر / إيدا لوشان
القصة ◆ الرواية ◆ المؤلف: دراسات في نظرية الأنواع
الأدبية المعاصرة / ترجمة: خيري دومة*
كبش الفداء / رينيه جيرار*
مدخل إلى الشعر الشفاهي/ بول زمتور*
نشوء الرواية / إيان وات*
الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر الشام / ز. ا. ليفين*
الموت في الفكر الغربي / جاك شورون*

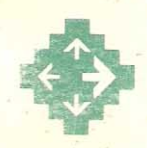
كتاب شرقيات للجميع

أيام من حياتي / هرمان هسه
قصص التحول في الأدب العالمي الحديث:
الأنف/جوجول ◆ المسخ/كافكا ◆ الثدي/روث
أثر العابر / أمجد ناصر
من مجمرة البدايات / محمد عفيفي مطر
حمار البحر / خالد عبد المنعم

خطوط الضعف / علاء خالد
ممر معتم يصلح لتعلم الرقص / إيمان مرسال
ثمة موسيقى تنزل السلالم / علي منصور
صمت قطنة مبتلة / فاطمة قنديل
شهرزاد في الفكر العربي الحديث / د. مصطفى عبد الغني
إغواء الغرب / اندريه مالرو
لا أحد يأتي هذا المساء / محمد موسى
حوريات البحر: مختارات قصصية / ترجمة: إدوار الخراط
حواس خاسرة / منعم الفقير
طيور جديدة لم يفسدها الهواء / طارق إمام
سراب التريكو / حلمي سالم
صورة شخصية في السبعين / جان بول سارتر
«... وليلة» / صفاء فتحي
أيورق الندم / سعد الحميدين
في البحث عن لؤلؤة المستحيل / د. سيد البحراوي
الدليل اللغوي العام / سليمان فياض
الأفعال الشاذة / سليمان فياض
قصة الأدب الفرنسي / د أمينة رشيد
معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث/ توم شيتواربند
لماذا ؟ قصيدة حب / إدوار الخراط
الكتابة / مرجريت دوراس
غواية موتي/ سلوى نعيمي
فضاء المراثي/ عبد الله السمطي
إن تغنت القصائد أو انطفأت فهي بي/ فوزية شويش السالم
أناهيد/ محمد يوسف

فنون

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)
لغة السينما / علي ابو شادي *



صدر في هذه السلسلة:

‹ ١ › أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
‹ ٢ › قصص التحول ❖ جوجول، كافكا، روث
‹ ٣ › أثر العابر ❖ أمجد ناصر
‹ ٤ › من مجمرة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
‹ ٥ › حـ… البحر ❖ خالد عبد المنعم
‹ ٦ › خطوط الضعف ❖ …لاء خالد
‹ ٧ › ممر معتم يصلح لتعلم الرقص ❖ إيمان مرسال
‹ ٨ › ثمة موسيقى تنزل السلالم ❖ علي منصور
… قطنة مبللة ❖ …طمه قنديل
‹ ١٠ › شهرزاد في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عبد الغني
‹ ١١ › إغواء الغرب ❖ اندريه مالرو
‹ ١٢ › لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
‹ ١٣ › حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
‹ ١٤ › حواس خاسرة ❖ منعم الفقير
‹ ١٥ › طيور جديدة... لم يُفسدْها الهواء ❖ طارق إمام
‹ ١٦ › سَرَاب التريكة ❖ حلمي سالم
‹ ١٧ › صورة شخصية في السبعين ❖ چان بول سارتر
‹ ١٨ › ... وليلة ❖ صفاء فتحي
‹ ١٩ › أيورق الندم ❖ سعد الحميدين
‹ ٢٠ › في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
‹ ٢١ › الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فياض
‹ ٢٢ › الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
‹ ٢٣ › قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمينة رشيد
‹ ٢٤ › معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شيتوايند
‹ ٢٥ › لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
‹ ٢٦ › الكتابة ❖ مرجريت دوراس